

من يصنع هويتي



Who makes my ID

القسن نبيل سمرعان يعقوب

من يَصْنَعُ هُوَيْتِي

الطبعة الأولى: ٢٠١٧ - دمشق.

الكتاب : من يصنع هُويّتي

المؤلف: القس، نبيل سمعان يعقوب

الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-9237-8-5

كل النصوص الكتابيّة مأخوذة من ترجمة (البستاني - فاندايك)

جميع حقوق الطبع أو إعادة النشر محفوظة للمؤلف وحده، ولا يجوز استخدام أو اقتباس أي جزء منه دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

تصميم الغلاف

Simon Kazanji

التنفيذ الطباعي:

مطبعة باب توما

دمشق - سوريا



من يصنع هُويّتي

دراسة عامة ومبسّطة في مفهوم الهُويّات

القس نبيل سمعان يعقوب

المحتويات

٩	مقدمة
١٢	الفصل الأول - الهوية الفردية (الذاتية)
	* مقدمة
	* تعريف الهوية الفردية
	* عناصر الهوية الفردية
	* تعليق الهوية الفردية
	* تفكك الهوية الفردية
	* مراحل تشكل الهوية الفردية
٢٠	الفصل الثاني - أنواع الهوية الفردية
	* الهوية المشتتة
	* الهوية المعلقة
	* الهوية المؤجلة
	* الهوية المنجزة
	* كيف نصل للهوية الفردية الافضل
٢٥	الفصل الثالث - الهوية الفردية ومحيطها
	* تأثير العائلة على الهوية الفردية
	* تأثير الأصدقاء أو (الأقران) على الهوية الفردية
	* تأثير المجتمع على الهوية الفردية
٢٩	الفصل الرابع - الهوية الاجتماعية
	* تعريف الهوية الاجتماعية
	* العوامل التي تؤثر في الهوية الاجتماعية
	١-العوامل الداخلية
	٢-العوامل الخارجية

الفصل الخامس - الهوية الوطنية

*تعريف الهوية الوطنية

*عناصر الهوية الوطنية

*العلاقة بين الوطنية والقومية

*العلاقة بين الوطنية والعشائرية

*الهوية الوطنية والانجاز

*الهوية الوطنية والعملة

الفصل السادس - الهوية الثقافية

*تعريف الهوية الثقافية

*الهوية الثقافية والعملة

الفصل السابع - الهوية الجنسية

*تعريف الهوية الجنسية

*تعريف مغايري الهوية الجنسية

*تعريف المثلية الجنسية

*التصنيفات الرئيسية للميول الجنسية عند البشر

*التفسير العلمي للميول الجنسية

*متى يفصح الشخص عن ميوله الجنسية

*الهوية الجندرية

*مشاكل الجندر

*المثلية الجنسية من الرفض الى القبول

*الكتاب المقدس والمثلية الجنسية

الفصل الثامن - الهوية الدينية

*تعريف الهوية الدينية

*الصراع بين الهوية الدينية والهوية الوطنية

*الهوية الدينية وصراع الأديان

الفصل التاسع - الهوية المسيحية

* مقدمة

* الهوية المسيحية يُشكّلها الله

* أهمية الهوية المسيحية

الفصل العاشر - امتيازات الهوية المسيحية

١- حاملها يعيش كإنسان حرّ، لا سلطان للخطية على حياته.

٢- حاملها يرى الآخرين بمنظور مختلف، هو منظور المحبة.

٣- حاملها متميزاً في عمله، متجاوزاً كل التوقعات.

الفصل الحادي عشر - الهوية المسيحية والذات

١- الذات جزء من الانسان العتيق

٢- الذات تتنافى مع مفهوم المحبة

٣- الذات تنفخ الانسان وتقوده للسقوط

* ماذا يعني موت الذات

الفصل الثاني عشر - الهوية المسيحية والهوية الوطنية

* تأثير الهوية المسيحية على الهوية الفردية الاجتماعية

* تأثير الهوية المسيحية على الهوية الوطنية

الفصل الثالث عشر - صراع الهويات عند العابر

* العابر والهوية الفردية

* العابر والهوية الاجتماعية

* مقدمة

على صفحات التواصل الاجتماعي كل منا يُعرّف نفسه، فيضع الصورة التي تظهر وسامته، او تظهر انتمائه الى شخصيات مميزة في المجتمع، ثم يختار الكلمات التي تصف نضوجه الفكري، ويكتب بالقلم ويرسم بالصورة ما يحلم ان يكونه، متجاهلاً حقيقة ما يكون. اما الذين يتواصلون معه، فهم بالحقيقة لا يتواصلون معه، بل مع شخصٍ مزيفٍ ليس له وجود على ارض الواقع.

ألا يتكرر هذا الامر بين اثنان التقيا في مشروع خطوبة، كل منهما يتكلّم ليس عن نفسه بل عن شخص يتوقع انه هو، يخاطبها كعاقِلٍ متزنٍ حكيمٍ، بطيء الغضب، لا يخشى أحداً في قراراته، وانها بالنسبة اليه الفتاة التي اختارها لتكون الملكة في بيته، وان سعادتها لن توصف اذا ما اقترنت به.

ومن جهتها، تُظهر له انه محظوظ كونه التقاها، فهي فاتنة الحي، ومُنية شباب الجامعة، وقد تقدم منها العشرات يخطبون ودها لكنها رفضت، انها من عائلة لها شأن كبير وقريبها له دور في المجتمع وصهرها فلان، وابن عمها يعرف الوزير، وانه في النهاية ان بقي وفيها لها وتابع معها المشوار سيعيش سعادة لا توصف.

فكر فيما تقول عن نفسك، لتدرك ما الذي يُشكّل هُويّتك؟ واسمح لي ان أقول لك ان كان الذي يشكّل هُويّتك يعطيك السلام الداخلي والرضى في كل الظروف فانت محق، اما إن كنت تشعر بالقلق وخيبة الامل فمن الضروري ان تتعرف على نفسك، بعيدا عما تقول عن نفسك.

هناك ثلاثة أمور غير حقيقية يظن الكثيرون انها تشكل هُويّتهم وهي مرتبطة برأي المجتمع، أي بما يقوله الناس عنهم:

١-المظهر الخارجي: يُعد المظهر الخارجي الجذاب أكثر السّمات الشخصية

تقديرًا في ثقافتنا اليوم كما بالأمس، لأن المظهر يعطي القيمة والاكتفاء، لذلك يتساءل الناس بشكل دائم: كيف يبدو مظهري؟ فالأطفال في المدارس لا يحبون ارتداء النظارات لئلا يقول لهم اصدقائهم (لك أربع عيون)، والفتيات والشبان لا يرغبون في ارتدائها لئلا يعرف الآخرين أنهم مصابون بقصر النظر. وهي تمارس الرياضة القاسية ليس للتخلص من البدانة بل طمعاً في جذب انتباه الآخرين، وهو يفعل نفس الشيء ليُظهر عضلاته لمن حوله. وهي ترتدي أنواع معينة من الثياب وتستخدم مكياجاً معيناً إما لإخفاء عيب أو لإظهار ما يلفت الناس إلى جمال مكنوز فيها. وهو يرتدي القميص مع الكرافت ويحمل بيده حقيبة ليقول للناس ما ليس هو.

الجميع يبحث عن الصورة المثالية ليزداد شعوره بالقيمة عند الآخرين. وهذه الحقيقة لخصها لنا الكتاب المقدس عندما قال: «الإنسان ينظر إلى العينين» (صموئيل ١٦: ٧).

٢- العمل والكفاءة: يُعد العمل في ثقافتنا أيضاً من الأمور التي تعطي القيمة والاكتفاء للشخص، ففي بعض المجتمعات كلمة طبيب، أو مهندس، أو صيدلي، تثير الإعجاب، وتطلق الآهات عند الناس. وقد تعلّم الأطفال في بيوتهم أن يكونوا أطباء أو مهندسين ليس لأن هذا ينسجم وميولهم بل لأن هذا يعطي لهم القيمة. أما المهارة فهي قيمة مضافة، فإن قيل لك: انك طبيب أكثر مهارة من فلان. ستظهر مباشرة على محياك علامات الاعتزاز بالذات. وإن قيل لك: انك واعظ بارع أكثر من فلان، أو معلم أفضل من فلان. فتحت قناعك المزيف من التواضع ستكشف عن ماردٍ من الكبرياء.

٣- النفوذ: يُعدّ النفوذ النابع من السلطة أو المال في ثقافتنا أيضاً من الأمور

التي تعطي القيمة والاكتفاء للشخص. لذلك يندفع الكثيرون وراء مواقع بارزة في العمل يمكن ان تعطيهـم النفوذ. فمن اجل المركز والمال يتقاتل الناس، ويتناحرون، ويدوسون بعضهم بعضاً، حتى في الهيئات الدينية التي يُفترض أن يكون الناس فيها أكثر تقوى تجد مع الأسف ذات الصراع.

ليس من السهولة ان تكون هُويّة الانسان صحيحة، لأن العوامل التي تُسهم في صياغتها متنوعة جداً، بعضها وراثي، والآخر مكتسب من بيئة فيها الكثير من المفاهيم الموروثة الخاطئة.

إن هذا الكتاب هو محاولة لإيضاح الطريقة التي تتشكل فيها الهُويّة الفردية، والصراع الذي يدور بينها وبين باقي الهُويات، كالدينية، والوطنية، والجنسية، الخ.. ولأن الهُويّة الدينية ذات شأن كبير سنقرأ ما يقوله الكتاب المقدس عن دور الإيمان المسيحي في صياغة الهُويّة الفرديّة، وجعلها في تناغمٍ مع كل الهُويات الأخرى لاسيما الوطنية.

القس، نبيل سمعان يعقوب

الفصل الأول

الهوية الفردية (الذاتية)

*مقدمة:

يستخدم الناس في بلادنا كلمة هَوِيَّة للدلالة على البطاقة الشخصية فيقال: بطاقة الهَوِيَّة، وهذا لفظٌ غيرُ صائبٍ رُغم شيوعه. والأصح ان يقال: بطاقةُ الهُوِيَّة. وليس الهَوِيَّة التي تعني في اللغة العربية^١، البئر البعيدة القعر، أمّا مصطلح الهُوِيَّة في اللغة العربية، فهو اسمٌ مُصاغٌ من الضمير المنفصل (هُوَ)، لذلك تُلفظ هُوِيَّة، وهُوِيَّةُ الإنسان^٢، حَقِيقَتُهُ الْمُطْلَقَةُ وَصِفَاتُهُ الْجَوْهَرِيَّةُ. أمّا بطاقة الهُوِيَّة، فهي البطاقة الشخصية، وتحملُ اسمَ الشَّخْصِ وتاريخَ ميلاده وعَمَلُهُ وَجِنْسِيَّتُهُ، وهي تدل على الأفراد داخل مجتمعهم، وتمنحهم صفةً قانونية للتصرّف بحُرِّية مطلقة تحفظها لهم الأحكام الدستورية المحلية، والدولية. وللهُوِيَّة أيضاً مفهوم يدلّ على العمومية، حيث يشير إلى فئة أو جماعة لديهم ميزات أساسية مشتركة، تميزهم عن مجموعات أخرى من الناس، وهذه الفئة تتبع لدولة، أو منطقة، أو جهة معينة. ولأن الهُوِيَّة مرتبطة بمتحولات فهي تعتبر غير ثابتة، أي تتحوّل تبعاً لتحوّل الواقع.

*تعريف الهُوِيَّة الفردية: هي إدراكُ الفرد لذاته بأنّه كائن مُتميّز عن غيره بما يحمله من صفات طبيعية، او مكتسبة، يشعر من خلالها أنّه مقبول ومعترف به كما هو من طرف الآخرين، أو من الثقافة التي ينتمي إليها.

عندما يتدبّر الفرد يدرك انه مُختلف عن الآخرين الذين هم حوله، يتحول من مرحلة التّطابق والتّماثل مع الآخرين إلى مرحلة التّفرّد والاختلاف عن الآخرين،

١ - معجم الوسيط، وهي جمع هوايا.

٢ - معجم الغني.

فتتشكل لديه الهوية الفردية، وهذه لحظة مهمة، لأنها خطوة فيها يتخلى عن مكونات الهوية المكتسبة من المجتمع، ليستبدلها بمكونات ذات طابع شخصي.

* عناصر الهوية الفردية:

اللغة: تُعتبر اللغة الوسيلة التي يتفاعل بها الأفراد فيما بينهم، وهي حلقة الوصل بين الأجيال المختلفة لنقل فكرهم الثقافي وتجاربهم الخاصة.

الانتماء الديني: يُعتبر الدين رابطاً بين أفراد الجماعة المؤمنة ذات الإيمان الواحد، ويهدف الى تنظيم الحياة الشخصية والاجتماعية للأفراد من خلال قيم معينة يتبناها الفرد ضمن الجماعة الواحدة.

الانتماء السياسي: يُشكل الجانب السياسي جزءاً هاماً من الحياة الاجتماعية، وانتماء الفرد أو الجماعة لجهة معينة يعطي مدلول الولاء لقيمها دون جماعة أخرى، ومن خلال الانتماء السياسي يستطيع الفرد تحقيق المكانة، والتميز الاجتماعي، واكتساب الشهرة، والحصول على التقدير والاحترام من قبل أفراد جماعته.

* تعليق الهوية الفردية:

أي عدم امتلاك الفرد هويته خلال فترة زمنية معينة بسبب مجموعة من العوامل التي تؤثر عليه، وتُقسم إلى نوعين هما:

العوامل الداخلية: وهي التي تنتج عن تأثير نفسي، أو مرضي يفقد الإنسان فيه القدرة في التعرف على هويته. وعادةً تحدث هذه المؤثرات نتيجة للإصابة بالأمراض أو الشيخوخة التي يرافقها أحياناً مرض النسيان شبه الدائم (الزهايمر).

العوامل الخارجية: هي التي تنتج عن تأثير خارجي، حيث يُرغم فيه الإنسان على ترك هويته، وترتبط عادةً بعوامل سياسية، مثل: فقدان اللاجئين لوثائقهم الشخصية، وبالتالي يفقدون بطاقات تعريف الهوية الخاصة بهم.

* تفكك الهوية الفردية:

هو مفهوم يرتبط بالحالات النفسية المرضية عند الأفراد بشكل مباشر، إذ يفقد فيه الإنسان معرفته بذاته عندها لا يُظهر أي اهتمام بالتعرف على نفسه وهويته، ليصبح مجرد كائن حي لا يمتلك أي دور في الحياة المحيطة به. وينتشر تفكك الهوية بشكل مميز عند الأشخاص الذين يعيشون خارج بيئة عائلية سليمة، ويجدون أنفسهم بلا بيت، أو مأوى منذ ولادتهم، ويعيشون في ذات الظروف حتى وفاتهم.

* مراحل تشكل الهوية الفردية:

تُعتبر نظرية النمو النفسي الجنسي لرائدها سيجموند فرويد تطوراً كبيراً في مسار علم النفس حيث تبنت مصطلحات جديدة كان لها أثر بارز في تفسير ظاهرة النمو عند الفرد، ومنها، الشعور، اللاشعور، الليبدو، الأنا، الأنا الأعلى، و الهُو. كما مهدت لظهور نظريات أخرى جديدة منها نظرية النمو النفسي الاجتماعي لإريك هامبرغر إريكسون^١ (Erick.H.Erickson)، الذي ركز على نمو الأنا مبزاً أهمية العوامل الاجتماعية، والنفسية، والبيولوجية في عملية النمو، وتكوين الشخصية، أي الهوية.

يرى إريكسون أن نمو الفرد يمر بثمانية مراحل عمرية كلٌ واحدة منها مبنية على التي تسبقها، وتتميز بتحديات خاصة بها (نفسية، اجتماعية)، حيث تحاول الأنا حلها وتجاوزها كي يسير النمو بوتيرة طبيعية وعادية، وعند فشل الأنا في حل الأزمات المختلفة، أي إن لم يتخطاها الإنسان ويسيطر عليها فسوف تظهر كمشكلات في مستقبله، وقد تعرّض لها بالتفصيل في كتابه «الطفولة و المجتمع»، وهذه المراحل هي:

١ - (١٩٠٢-١٩٩٤)، طوّر أفكار عالم النفس سيجموند فرويد وقَدّم ما يُسمّى بنظرية (الهوية الفردية)، التي تدور حول كيفية تعرف الفرد على هويته. وقد اهتم بدراسة الهوية بالاعتماد على علم النفس، وتعتبر هذه النظرية أن الهوية لا تتكون نتيجة لعوامل اجتماعية فقط، بل تعتمد أيضاً على عوامل السلوك النفسي للأفراد، وكيفية تأقلمهم مع المجتمع الذي يوجدون فيه.

المرحلة الأولى: هذه المرحلة توازي المرحلة الفمّية في نظر فرويد، وتُظهر خلال العام الأول عند الطفل، وفيها ينشأ صراع داخل الطفل ما بين إحساسه بالثقة، أو عدم الثقة في الآخرين، فالطفل الذي لديه ثقة داخلية، يرى العالم الاجتماعي حوله آمناً ومستقراً، والعكس صحيح.

فمثلاً عندما يبدأ الطفل بالبكاء بسبب الجوع، وتستجيب له أمه اذ تقوم بإرضاعه، يتولد لديه إحساس بالثقة والأمان. أما ان لم تُلبّ أمه حاجته فسيولد لديه شعور من عدم الثقة بالآخرين، وأن عالمه ليس آمناً. وهنا دور الام ان تساعد ابنها لئلا ينتقل الى المرحلة العمرية التي تلي، ومعه ازمة عدم ثقة بمن هم حوله.

المرحلة الثانية: هذه المرحلة تمتد بين السنة الثانية إلى الثالثة من العمر، وفيها ينشأ صراع داخل الطفل ما بين الاستقلالية من جهة، والشعور بالخلج والشك من جهة أخرى. في هذه المرحلة يتعلّم الطفل مهام جديدة، مثل قضاء حاجته، والدخول إلى الحمام كما يفعل الكبار، أو تناول الطعام بمفرده، وإذا نجح الطفل في القيام ببعض المهام وحده، فإنه سيُطوّر شعوراً بالاستقلالية والاعتماد على النفس، أما إذا فشِل في ذلك، فسيُتولّد لديه إحساس بالخلج والشك في قدراته. وبالتالي سيلازمه السؤال، هل أستطيع ان افعل الأشياء وحدي ام احتاج للاتكال على الآخرين.

وهنا الدور المهم للأُم او الاب في انتقال طفلهم الى مرحلة عمرية متقدمة دون ان يكون لديه أزمة، تتجلى في اتكاله على الآخرين في كل شيء.

المرحلة الثالثة: هذه المرحلة تمتد بين السنة الثالثة إلى السادسة من العمر. وتشير هذه المرحلة في نظر إريكسون إلى الصراع النفسي الاجتماعي الذي يعيشه الطفل في فترة ما قبل المدرسة كما تسمى أيضاً هذه المرحلة فترة اللعب، وفيها ينشأ صراع داخل الطفل بين الجرأة في المبادرة وبين الشعور بالخوف.

في هذه المرحلة يُوسَّع الطفل مجال استقلاليتِه، فيبادر إلى اللعب مع الأولاد الآخرين، ويتبدئ بتحمُّل مسؤوليات صغيرة مثل إغلاق باب المنزل، أو شراء بعض الأغراض من متجر قريب. وحين يشعر أنَّ المبادرات التي يقوم بها لا تنال إعجاب الآخرين بل يرفضونها، يتكون لديه احساس بالخوف من القيام بأيِّ مبادرات.

وهنا يكمن دور الأهل في تشجيع الطفل على القيام بأية مبادرات معقولة عن طريق تشجيعه أمام الآخرين، لئلا يحمل معه ازمة الشعور بالخوف من القيام بأي مبادرة، الى مرحلة عمرية قادمة.

المرحلة الرابعة: هذه المرحلة تمتد بين السنة السادسة إلى الحادية عشرة من العمر، وهي تتزامن مع مرحلة الكمون لدى فرويد. وفيها ينشأ صراع بين الاجتهاد من جهة والشعور بالنقص من جهة أخرى. أكثر الناس تأثراً في هذه المرحلة هم المعلمون والاقارب. في هذه المرحلة يتبدئ الطفل بالذهاب رسمياً إلى المدرسة، فيصبح مطلوباً منه إتقان مهارات اجتماعية وتعليمية معينة، فإذا نجح الطفل في بناء علاقات مع معلميه، وزملائه الطلبة، وابتدأ يتقن الكتابة والقراءة، ينتابه شعور الثقة بالنفس. أمّا الطفل الذي لا يستطيع القيام بالمهارات المطلوبة فيمكن أن يشعر بالنقص والضعف، وهذا يعني ازمة في مرحلة عمرية لاحقة.

المرحلة الخامسة: وهي من عمر اثني عشر عاماً الى ثمانية عشر عاماً. وفيها ينشأ صراع بين تحقيق الهوية واضطراب الهوية. أكثر الناس تأثراً في هذه المرحلة لتشكيل الهوية هم الأقران، اي الاصدقاء من نفس المرحلة العمرية.

تبدأ هذه المرحلة عادة مع بداية مرحلة البلوغ، وتنتهي عندما يأخذ الشخص موقفاً محدداً من العالم الذي يعيش فيه ليصنع لنفسه هويةً مميزةً. يُحاول الشخص في هذه المرحلة أن يُجيب عن أسئلة متنوعة مثل: مَنْ أنا؟ مَنْ أكون بالنسبة للمجتمع

الذي أعيش فيه؟ ما المهنة، أو الوظيفة التي أرغب أن أحصل عليها عندما أصبح كبيراً ناضجاً؟ ما القيم والمعتقدات التي تُنظّم مسيرتي وتقودها؟ ما النمط العام للحياة الذي أفصله على غيره؟ ما طبيعة الجماعة التي أُفضل الانتماء إليها والتعامل معها؟ وبسبب تعيّر ظروف الحياة وتعقيدها وكثرة المفشلات فيها، فإنّ هذه المرحلة قد تمتد إلى ما بعد الثامنة عشرة لتصل إلى مُنتصف العشرينات، أي بما يكفي لتشكيل الهوية.

في هذه المرحلة يظهر ما يسميه إركسون «بأزمة الهوية» التي تحدث عندما يخفق المراهق في تنمية هوية شخصية بسبب خبرات الطفولة السيئة، أو الظروف الاجتماعية المحيطة، مما يؤدي إلى فشل المراهق في اختيار عمل، أو مهنة، أو مواصلة التعليم.

المرحلة السادسة: وهي من عمر تسع عشرة سنة الى أربعين سنة. وفيها ينشأ صراع بين الحميمية من جهة، لكونه يدرك انه محبوب، وبين العزلة من جهة أخرى، لكونه يدرك انه غير محبوب.

في هذه المرحلة يطمح الشباب إلى تكوين علاقات تقود إلى الزواج، ويحتاجون إلى أن يُبادلوا شخصاً من الجنس الآخر مشاعر الحب والإخلاص. لذلك أكثر الناس تأثراً في هذه المرحلة هم أصدقاء العمل.

إذا اجتاز الشخص المرحلة السابقة (الخامسة) دون تحقيق هوية واضحة لنفسه، فسوف يعزل ويميل إلى الوحدة، ومن المُحتمل أن يجد صعوبة كبيرة في اختيار شريك الحياة، وتكوين علاقات حميمة يدمج فيها هويته مع أفراد آخرين.

المرحلة السابعة: وهي من عمر أربعين سنة الى خمس وستين سنة. وفيها ينشأ صراع بين الإنتاجية من جهة، والركود من جهة أخرى. أكثر الناس تأثراً في هذه المرحلة هم الأطفال.

يُعتبر الشخص منتجاً عندما يُبدع ويبتكر لصالح المنفعة العامة، وحين يبدأ في الاهتمام بالمصالح العامة للجيل التالي، والمجتمع الذي يمارس فيه حياته.

في هذه المرحلة يرغب الشخص الناضج ان يجد شخصاً آخر يحتاج اليه لكي يمارس دوراً ابوياً رعوياً، ليخلق لنفسه إحساساً بالأبوة المرتبط بالإنتاج والعطاء، إحساس بأنه قادر على عمل شيء ذي قيمة. وعندما يفشل في تنمية هذا الإحساس الأبوي، فإنه يعيش مرحلة الركود، ويبدأ في إمتاع ذاته كما لو كان هو الشخص الوحيد في الحياة.

المرحلة الثامنة: من عمر خمس وستون سنة حتى الوفاة. وهي فترة تعثرها الكثير من المطالب والتوقعات التي تعود إلى تدهور القوى الجسمية والصحية للشخص. وفيها ينشأ صراع بين السرور من جهة، واليأس من جهة أخرى.

في هذه المرحلة يكون الإنسان قد وصل إلى مرحلة التقاعد، وربما فقد شريكه في الحياة، أو بعض الأصدقاء المقربين، مما يولد لديه حاجة ملحة إلى انشاء علاقات مع أفراد آخرين من نفس العمر. ومن هذا المنطلق يُغيّر الفرد من نظرتة الى الحياة فبعدما كان مهتماً بحاضره، يخطط له ويدرسه، يصبح في هذه المرحلة أكثر انشغالا بماضيه واسترجاع ذكرياته والحنين إليه، فينظر الى الوراء ليرى ما إذا كان قد عمل شيئاً مفيداً لمُجتمعِهِ وللناس الذين تعامل معهم طيلة حياته. فإن كان قد استغلّ الفرص التي أُتيحت له في حياته فإنه سيشعر بالسرور والبهجة. أمّا إذا تذكّر أنّه لم يستغلّ الفرص التي سُنحت له ولم يكن مؤثراً بشكل مفيد، فإنه سوف يدخل في حالة من الندم، واليأس، كونه قد عاش حياة غير مثمرة.

* بعض الملاحظات المتعلقة بهذه المراحل العمرية:

- ١- إن تحقيق الهوية في كل مرحلة هو عامل مهم في تحقيق الهوية في المرحلة التي تليها.
- ٢- إن الفشل أو النجاح في كل مرحلة لا يؤثر فقط على المرحلة العمرية التي تلي، لكن ينسحب على كل المراحل العمرية حتى الوفاة.
- ٣- إن الالتزام- أي اتخاذ قرار ثابت وتبنيّه في أي مجال من مجالات الحياة- هو العامل الأهم في تحقيق الهوية الذاتية.
- ٤- إن الأزمة هي فترة عدم اتزان، وهي مهمة، لأن فيها تتطور الهوية، حيث يقوم الفرد باختيار بديل آخر متاح امامه في محاولة منه للوصول إلى هوية ناضجة.
- ٥- إن هذه المراحل قد أزيل منها العامل الإيماني للأبوين أو للشخص ذاته، هذا العامل الذي يدعو الله للمعونة في كل الازمات، ويدعوه أيضاً لتقويم كل الأخطاء المتراكمة نتيجة الخيارات الخاطئة.



الفصل الثاني

أنواع^١ الهوية الفردية

أولاً، الهوية المُشْتَتة (المضطربة): نجد هذه الهوية لدى الأشخاص الذين لم يمرّوا بأية أزمة، ولم يُظهروا أيّ التزام، أي لم يتخذوا قرارات ثابتة. وهؤلاء يتصفون:

١- ليس لديهم موقف واضح يُلزمهم. لذلك يرفعون أشرعتهم حسب هبوب الرياح واتجاهها.

٢- يتطلّعون باستمرار لأشخاص من حولهم، لكي يُساعدوهم بشكلٍ أو بآخر في ادراك مَنْ يكونون.

٣- ليس لديهم التزام نحو أي مهنة، أو معتقدات.

٤- لديهم إحساس بالفراغ والعزلة، وقد يلجؤون للمُخدّرات لأنهم يجدون صعوبة في التكيّف مع واقعهم.

بالمختصر، حامل هذه الهوية شخص غير مستقر على فكر معين.

ثانياً، الهوية المُغلّقة: هذه الهوية تُمثّل حالة الأشخاص الذين لم يمرّوا بأية أزمة ولكنهم يُظهرون التزاماً. تُظهر هذه الحالة عند المُراهقين الذين لم يُجربوا أية أدوار أو يستكشفوا أيّ مُعتقدات وآراء، ولكنهم اختاروا ما اختارّه الآخرون لهم. وكمثال على ذلك: تُظهر هذه الحالة عندما يُقرّر أب سُلطوي أن يختار أسلوب حياة ابنه، أو عندما يعيش الابناء بحسب القيم التي تُرضي والديهم.

هؤلاء الأشخاص قد يصلون إلى لحظة ما في حياتهم يندمون فيها على القرارات التي اتخذوها والالتزامات التي أظهروها لأنها لا تُعبّر بالضرورة عن احتياجاتهم الحقيقية.

١- هذا التصنيف يرتبط بالآزمات التي يمر بها الشخص، وما يديه من قرارات بشأنها.

إنَّ الهويةَ المُغلَّقةَ تظهر بشكل عام عند الشباب الذين يُنقِّدون بشكلٍ أعمى رغبات ورؤى قادتهم في التيارات السياسية والدينية التي ينتمون إليها. ومن بين هذه الرغبات مثلاً، العمليات الانتخابية.

بالمختصر، حامل هذه الهوية شخص ليس لديه فكر واضح يتبناه، لذلك يتبنى فكر الآخرين.

ثالثاً، الهوية الموجلة (المُغلَّقة): نجد هذه الهوية لدى الأشخاص الذين مرّوا بأزمة، أي توقّرت لديهم فرصة البحث عن قيمٍ لِيَتَّبِعُوها، وكان لديهم مُعتقدات مُعدّدة لاختيار الأفضل منها، ولكنهم لم يُظهروا أيّ التزام، أي لم يتخذوا قراراً ثابتاً.

كلّما طالّت فترة تأجيل القرار، فإن هناك خطر على الفرد بأن يتحوّل إلى مرحلة الهوية المضطربة أو الهوية المُغلَّقة.

بالمختصر، حامل هذه الهوية شخص لم يتخذ قراراً بعد، انه في مرحلة تجريب الخيارات المختلفة.

رابعاً، الهوية المُنجزَة (المُحقَّقة): يصل إلى الهوية المنجزة (المُحقَّقة) الأشخاص الذين مرّوا بأزمة خيارات، وأظهروا التزاماً مُحدّداً، أي اتخذوا قرارات محددة. وهذا يعني أنهم يعرفون قدراتهم، وميولهم، وخصائص حياتهم. وهؤلاء يتصفون:

١ - لديهم التزام بحلّ المشكلات التي يواجهونها حتّى لو كانت موافقهم مُغايرة لرغبة الأُبوين، والمرشدين. فهم لا يتأثّرون بالضغوط والظروف الخارجية، بل يُثابرون ويستمرّون برغم الصعوبات.

٢ - متفهمون للآخرين حتّى لو كانوا مُختلفين في طريقة تفكيرهم.

٣- هم مَحْطُّ ثَقَّةِ الْآخَرِينَ فِي الظُّرُوفِ وَالتَّحَدِّياتِ الَّتِي تُوَاكِهُهُمْ.

بالمختصر، حامل هذه الهوية يعرف من هو وماذا يريد.

* كيف نصل للهوية الأفضل

مع الاسف ان غالبية الكبار لا يدركون احتياجات الأطفال أو المراهقين ولا يفهمونها، لذلك يتطرفون في تعاملهم معهم. فالبعض يُضَيِّقون عليهم الخناق، ويُراقبون كلَّ صغيرة وكبيرة في حياتهم ممَّا يجعل المراهقين يتحسَّنون الفرصة المُلائمة للإفلات من قبضة الوالدين، أو المسؤولين عنهم. وهذا يعني أن هؤلاء الكبار منعوا ابنائهم المراهقين من الاستكشاف وتحقيق الهوية. والبعض الآخر يتصرف نقيض ذلك، إذ يتخلَّون عن دورهم ويتركون الحرِّيَّةَ كاملة للمراهقين ليتصرفوا كما يروق لهم، فيدفعونهم للتركيز على الأمور السطحيَّة والشكليَّات دون عمق حقيقي لشخصياتهم، وبالتالي يحرِّمونهم من تحقيق هُويَّتهم.

ولمُساعدة المراهقين على تحقيق هُويَّتهم يمكننا ان نقوم بالأمر التالية:

١- تشجيع أطفالنا على الاستكشاف، واتخاذ القرارات بأنفسهم، كأن نجعلهم مثلاً يتذوِّقون الطعام في سنٍّ مُبكرة، وبالتالي نُعوِّدهم على اتِّخاذ قرارات صغيرة تكون بداية لقراراتٍ هامَّة لاحقاً.

٢- التوقُّف عن أيِّ أسلوب سلطوي في عائلتنا، كأن نرغمهم على الطاعة دون ابداء أي رأيٍ، لأن هذا يولِّد لديهم الشعور بالتمرد، والقيام بتصرفات خاطئة، انتقاماً من والديهم.

٣- تشجيع الأطفال منذ الصغر كلّما بادروا بعمل شيءٍ إيجابي، واعطاءهم الاحساس أنَّ هنالك من يُلاحظ عَمَلهم ويُقدِّره.

- ٤- إشراك الأطفال في اتخاذ بعض القرارات في البيت، والمدرسة، وفي الحياة اليومية. وهذا يأتي عن طريق فتح قنوات الحوار مع الأطفال، وتشجيعهم على التفكير.
- ٥- توفير فرص حوارية للشباب لسماع صوتهم، وأيضاً توعيتهم.
- ٦- اكتشاف القدرات الطبيعية لدى الأطفال وتشجيعهم على المواظبة على ممارستها مثل الرياضة، والفنون، والأنشطة الثقافية والأبحاث العلمية.
- ٧- التوقف عن انتقاد الاطفال وإهانتهم كلما أخطأوا.
- ٨- حماية أطفالنا من أي سوء معاملة.

والآن لنفترض أنني حققت هويتي في مراحل مبكرة في حياتي، أي اخترت المهنة التي أحب، تزوجت بالشخص الذي أحب، أقوم بالدور الذي أحب، أستثمر حياتي في الآخرين وأجد أن هذا يُعطي معنى لحياتي. فهل هذا كل شيء؟ الجواب بالطبع لا.

هناك حاجة ماسة إلى أن يقوم الإنسان بإعادة النظر في حياته، فكره، معتقداته، القيم التي يعيش بحسبها وموقفه تجاه الكثير من القضايا الملحة، واهمها موقفه من الموت الذي لا يستأذن احدا منا؟ فهل ما عيشه يأتي بي الى حياة سعيدة بعد الموت، ام يأتي بي الى دينونة ابدية؟

قد تختلف إجابات كل شخص فينا عن الآخر وهذا منطقي، لأنه قد لا تكون لنا نفس الهوية: فالبعض لديه هوية مُشوشة، أي غير مستقر على فكر معين. والبعض الآخر لديه هوية مُوجلة أي أنه في مرحلة تجريب خيارات مختلفة ولم يتخذ قراراً بعد. والبعض الآخر لديه هوية مُغلقة أي أنه لا يملك فكراً واضحاً يتبناه، فهو يتبنى فكر الآخرين. والبعض الآخر لديه هوية مُحققة أي يعرف من هو وماذا يريد.

يحتاج جميع الأشخاص بِعَظِّ النَّظَرِ عَنْ هُويَّتهم أَنْ يُجِيبُوا بِجَدِّيةٍ وَعُمقٍ عَنْ هذا السؤال، هل ما عيشه يأتي بي الى حياة أبدية سعيدة بعد الموت، ام يأتي بي الى دينونة ابدية؟ بافتراض ان القبر ليس نهاية الحياة، لكنه شاهد على قصرها في هذا العالم، وعتبة الانطلاق لإكمالها فيما وراء هذا العالم!

إن كانت الاجابة: لا أعرف، أنا في مرحلة إنتظار واختبار للأشياء، أنا مع الجماعة، ما يحدث لهم يحدث لي، او ما شابه من هذه العبارات، فهناك حاجة للإسراع في اتّخاذ القرار الهام المتعلق بالأبدية.

كم من الوقت تحتاج لاتخاذ قرارك، لا أحد يستطيع الجزم بذلك، لكن المهم أن تأخذ هذا القرار قبل وفاتك، واسمع قول الكتاب: «إِنْ كُنْتَ حَكِيمًا فَأَنْتَ حَكِيمٌ لِنَفْسِكَ وَإِنْ اسْتَهْزَأْتَ فَأَنْتَ وَحْدَكَ تَحْمَلُ» (امثال ٩: ١٢).



الفصل الثالث

الهوية الفردية ومحيطها

* تأثير العائلة على الهوية الفردية:

للعائلة تأثير كبير على حياة الفرد، فالفرد يستمدّ بالمقام الأول صفاته الوراثية من والديه، ثم تلعب العائلة دوراً هاماً في تشكيل هوية أفرادها، فالفرد يتعلّم داخل عائلته كيف يتعامل مع الناس، وكيف يُبادر إلى عمل أنشطة مُعيّنة تُقوّي فيه روح الاستقلالية والاعتماد على النفس، وكيف يتواجه مع منظومة من القيم الدينية، والوطنية، والاجتماعية، والأخلاقية، والثقافية، التي ستحدّد طريقة تفكيره وسلوكه المستقبلي في المجتمع. ومن الملاحظ أن العلاقات داخل العائلة كلّما كانت ودّية تتسم بالحبّة والدّعم والتشجيع، كلما كانت هوية الفرد تنمو وتحقق بشكل أفضل.

إنّ واجب الوالدين هو أن يُدرِكوا الحقيقة التي أدركها المُرّم قديماً عندما قال: «هُوَذَا الْبَنُونَ مِيرَاثٌ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ»^١ فإن كان البنون ميراث (أي عطية) مِنْ عِنْدِ الرب، صار من الواجب على الوالدين أن يُعاملوا أولادَهُما باحترام وتقدير كونهما وكلاء على هذه العطية، فيعملان لخيرها.

أمّا إذا كان الفرد يعيش في عائلةٍ يَنشغل فيها الوالدان عن أولادِهِما بأعمال المَنزِل، أو بأعمال أخرى، فإنّ الرسالة التي تَصِل إلى الأبناء هي أنّهم غير مهمّين وغير محبوبين، فيتشكّل لديهم إحساس مُشوّه عن هويّتهم. إضافة إلى انه يفقدون كل ما يملكه الابوان من خبرات ومهارات يمكن ان تضاف الى رصيدهم اليومي في الحياة. ومن المؤسف القول، إنّ عائلتنا ليست مثالية دائماً وبالتالي لا تقدم الحبة والتقدير لأبنائها.

إذا كلما كانت العلاقات داخل العائلة لا تتسم بالمحبة والدعم والتشجيع، كلما كانت هوية الفرد ضعيفة في نموها وبطيئة في تشكيلها.

* تأثير الأصدقاء أو (الأقران) على الهوية الفردية:

للأصدقاء تأثير كبير على حياة الأفراد سلباً أو إيجاباً، ومن المحتمل جداً أن يتبنى الأفراد معتقدات وقيم أصدقائهم. وكما أن للعائلة التي تتسم بالتشجيع، دوراً هاماً وأساسياً، في تحقيق الفرد لهويته، من حيث الاستقلالية، والثقة، وروح المبادرة، كذلك يمكن للأصدقاء الذين يتسمون بالإيجابية، أن يؤثروا على تشكيل هوية صديقهم، عن طريق مساعدته في اجتياز مواقف وأزمات خاصة.

عندما يكون الفرد في مرحلة تجريب الخيارات، ولم يتخذ قراراً بعد، أي هو في مرحلة الهوية المؤجلة (المعلقة)، يمكن لأصدقائه أن يلعبوا دوراً هاماً، في تشجيعه على استكشاف البدائل، ومحاولة الوصول إلى مرحلة تحقيق الهوية المنجزة ليعرف من هو وماذا يريد. وكذلك يمكن للأصدقاء ان يكون لهم تأثير سلبي حيث يمكن أن يقودوا الفرد إلى الهوية المضطربة، أي الى وضع يكون فيه الشخص غير مستقر على فكر معين. أو إلى الهوية المغلقة، أي الى وضع يكون فيه الشخص بدون فكر واضح يتبناه، فيتبنى فكر الآخرين.

ومن التأثيرات السلبية للأقران، أن لكل مجموعة من الأصدقاء خصوصيتها وقيمها، فإن أراد الفرد الانضمام إلى هذه المجموعة او تلك رغم اختلافها عنه في القيم والخصوصية سيجد نفسه امام خيارين:

الأول، التخلي عن قيمه، وتبني قيم هذه المجموعة من اجل الانضمام اليها، وهذا ما سيقوده بالضرورة إلى مرحلة الهوية المضطربة، أي الى وضع يكون فيه الشخص غير مستقر على فكر معين.

١ - أي الأصدقاء من نفس المرحلة العمرية.

الثاني، ان يكون بدون فكر واضح يتبناه، فيتبنى فكر الجماعة، فتسيطر عليه وتحكم بحياته.

* تأثير المجتمع على الهوية الفردية:

إن الإنسان كائن اجتماعي، يجد نفسه من خلال العلاقات التي يُنشئها، أو يتبادلها مع بقية الناس. فمن جهة يتأثر بالمجتمع من خلال العادات والتقاليد الموروثة، أو من خلال الفرص التي يهيئها له المجتمع ليعيش حياته. ومن جهة أخرى، كفردي، يؤثر في المجتمع بما يحمله من آراء وقيم. وهذا يعني إن هويتنا كأشخاص تتأثر بالبيئة والمجتمع الذي نعيش فيه كونها نتاج بيئتنا وثقافتنا، وبالتالي يستطيع المجتمع ان يؤثر على هويتنا بشكل مباشر او غير مباشر بالشكل التالي:

أولاً، الشكل المباشر:

يؤثر المجتمع على هوية الفرد بشكل مباشر من خلال القوانين، والتشريعات الناظمة لحياة أفراد المجتمع، وحينما يشعر الفرد أنه في المجتمع مُقدّر وذو أهمية، بغض النظر عن انتماؤه، وعشيرته، وإنجازاته، وأنه يُمنح الفرص التي يُمكن أن يحصل عليها أي مواطن، تتأثر هويته الفردية إيجابياً، وتزداد محبته للهويته الوطنية لأنها تُحافظ على هويته الفردية.

أمّا إذا كان المجتمع لا يؤمن بتكافؤ الفرص، وتسودّه المحسوبيّة والواسطة للحصول على مكتسبات، فإن الفرد يشعر بالظلم والإحباط والغربة في بلده، وهذا ما يخلق الصراع في داخله بين منظومة قيمه الخاصة التي يُحبها والتي تشكل هويته الفردية، وبين منظومة قيم المجتمع. وعلى الأرجح تكون النتيجة أن يتخلى عن هويته الوطنية التي لم تحفظ له هويته الفردية، فيترك بلده ويهاجر إلى الغرب بحثاً عن العدالة الاجتماعية.

ثانياً، الشكل غير المباشر:

منذ ولادة الشخص في مجتمع ما، فإنه يُصبح تلقائياً جزءاً من ثقافة هذا المجتمع التي تنتقل من جيل لجيل، ويكون قابلاً لهذه الثقافة من خلال والديه وعائلته. فوالدا هذا الشخص مثلاً، يحتفلان بكل المناسبات الاجتماعية وفق الطريقة التي يحتفل بها المجتمع تقريباً، وكل ما تفعله عائلة المولود الجديد تفعله حسب عادات وتقاليد المجتمع. وكلما نما الفرد ونضج، أصبح أكثر فاعلية في ممارسة ثقافة مجتمعه المتوارثة، وأصبح أيضاً أكثر تأثيراً في ترك بصمته القوية في المجتمع من خلال قناعاته التي صاغها بمرور السنين. فالمجتمع والفرد إذاً، يؤثر كل منهما على الآخر ويُغيّره.



الفصل الرابع

الهوية الاجتماعية

مقدمة:

إننا نعيش في زمنٍ تتعدّد فيه الهويّات، وهذا مرّدّه إلى التطوّرات الكبيرة التي حدثت في العالم، وعزّزت استقلاليّة المُجتمعات والأفراد. ففي السابق كانت المُجتمعات بدائيّة، وتتّسم العلاقات بين أفرادها بالبساطة والإلفة الشديدة، حتّى أنّ عوامل تصنيف المُجتمع كانت بسيطة. فيصنّف السكان في البلد الواحد كالتالي: سكّان المدن، سكّان القرى، سكّان الجبل، وهكذا.

ولكن عندما ابتدأت المُجتمعات تتحوّل إلى مجتمعات مُتطوّرة، وابتدأت الهجرات من الريف إلى المُدن بحثاً عن العمل، أو الالتحاق بالمدرسة والمعهد، تغيّر نمط الحياة في هذه المُجتمعات، فالشخص الذي ترك عائِلته وانتقل ليُسكّن في المدينة، سيبحث عن غرفة مُتواضعة يَسْتأجرها وَيَسْتَقَرّ فيها، وهناك يُصبح مضطراً للانتماء لمُجتمع جديد مختلف تماماً عن مجتمّع القرية، قد يكون مجتمّع المدرسة، أو المعهد أو العمل. وفي هذا المجتمع الجديد سيتقوّى لديه الإحساس بقيمته كفرد، ولكن بنفس الوقت يَبْتَدِئُ يُواجه صراعات جديدة لم تكن موجودة عندما كان في قريته بين أهله، لأن ثقافة المدينة مُختلفة تماماً عن ثقافة القرية.

إذا الهوية الاجتماعية يكتسبها الشخص في البداية من خلال انتمائه للجماعة الأولى، وهي العائلة، ثم تتغير عندما ينتمي إلى جماعة جديدة هي جماعة المدرسة، ثم تتغير عندما ينتمي إلى دائرة الجيران والأقارب، ثم تتغير عندما ينتمي لجماعة جديدة في الجامعة أو في مكان العمل، وفي كل مرحلة متقدمة يتخلّى الشخص عن بعض الأمور التي اكتسبها من الهوية السابقة.

* تعريف الهوية الاجتماعية أو هوية «النحن»: هي ما يحمله الفرد من صفاتٍ، تجعله ينتمي الى هذا المجتمع او ذاك، وهي هوية متغيرة.

من المهم ان نفرق ما بين الهوية الاجتماعية، والهوية الجماعية. حيث تُعرّف الهوية الجماعية بأنها تلك الصورة من الوعي، أو ذلك الشكل من المعرفة، الذي تكونه مجموعة معينة من الافراد عن نفسها، لتجعلها متميزة عن جماعة (أو جماعات) أخرى.

العوامل التي تؤثر في الهوية الاجتماعية:

أولاً- العوامل الداخلية:

(١) طبيعة العلاقات الاجتماعية: كلما كانت العلاقات الاجتماعية قوية بين أفراد الجماعة، كلما زاد هذا من وضوح الهوية الاجتماعية لدى الفرد. والعكس صحيح أي كلما كانت العلاقات الاجتماعية ضعيفة، مُقتصرة فقط على بعض الأنشطة الاقتصادية او ما شابه، فإنّ الهوية الاجتماعية تتأثر بذلك سلباً. أي تكون ضعيفة.

(٢) المكانة الاجتماعية والاقتصادية للفرد وسط الجماعة: بعض الأفراد داخل الجماعة لهم مركز اقتصادي او اجتماعي قوي. هؤلاء تتمسك بهم الجماعة لتستفيد منهم، أما هم فليس بالضرورة ان يتمسكوا بالجماعة، بل على الأغلب سيبحثون عن علاقات خارج الجماعة تناسب ومركزهم الاجتماعي او الاقتصادي. وهكذا فإن مكانة الفرد في الجماعة تؤثر على الهوية الاجتماعية سلباً او إيجاباً.

ثانياً، العوامل الخارجية:

(١) علاقة الدولة بالجماعات داخلها: في كل دولة يوجد عدد كبير من الجماعات المتميزة، التي لها هويات مختلفة. فمثلاً، هناك مجموعات تكوّنت على أسس حزبية، أو على أسس دينية، أو عرقية، أو جغرافية أو مهنية.

إن الأفراد الذين ينتمون لهذه المجموعات، يحملون هُويّات هذه المجموعات، ويتحمّلون الأعباء المُترتبة على هذه الهُويّات، والمَنطق السليم يفترض وجود علاقة احترام من قِبَل الدولة لأي جماعة أو أقلّيّة داخل الدولة. لكنّ واقع الأمر في البلاد العربيّة، والعالم الثالث ليس هكذا، إلا إذا كانت الدولة تستفيد من هذه العلاقة. إنّ هذا التعامُل غير السليم، من قِبَل أي دولة مع الأقلّيّات، والجماعات داخلها، سيؤدي في النهاية لنشوء حالة توتر بين مُجتمع الأقلّيّة ومُجتمع الدولة، وبالتالي ستتقوى الهُويّة الاجتماعيّة للأقلّيّة على حساب الهُويّة الوطنية نتيجة اتّحاد أفراد الجماعة أمام خطر الدولة الذي يُهدّد وجود هذه الجماعة.

٢) علاقة الجماعات (الأقلّيّات) داخل الدولة مع بعضها البعض: عادة ما تكون علاقة الأقلّيّات ببعضها البعض مُرتبطة بطبيعة علاقة الدولة بهذه الأقلّيّات. فأحياناً تتعامل الدولة مع إحدى الأقلّيّات بطريقة خاصّة تُميّزها عن بقيّة الأقلّيّات المهمشة، ممّا يؤلّد حالة من الغضب وعدم الرضا عند الأقلّيّات الأخرى تجاه الدولة والأقلية المرتبطة بها. وفي حال تغيرت الخريطة السياسيّة داخل الدولة كما حدّث في العراق مثلاً، تبرز إلى الواجهة السياسيّة إحدى الأقلّيّات التي كانت مهمشة، لتتصرف مع بقية الاقلّيات، كما تصرفت الدولة معها سابقاً، أي بمنطق التهميش والاقصاء.

٣) وسائل الإعلام والثقافة في الدولة: في الدُول العربيّة، يقتصر اهتمام الإعلام الحكومي بالأقلّيّات، على نشر بعض الأخبار المُتفرقة عن أنشطتهم في مواسم الأعياد، أو مواسم السياحة. بحيث يشعُر مُواطنوا هذه الأقلّيّات أنّهم مهمشون لا صوت لهم، ولا مِنبر يُعبّر عن وجودهم وخصوصيّاتهم.

ومع الأسف فإنّ غالبية الأقلّيّات في البلاد العربيّة مُصنّفة من منظور ديني، لذلك لا يمكن ان تحظى هذه الأقلّيّات بمنبر اعلامي، ينافس دين الدولة الذي يركز

على ديانة الاغلبية. فلا اذاعات ولا مطبوعات، منافسة عقائدياً. بل على العكس يكون الإعلام العام عادةً، مُضطهداً بشكل مباشر، أو غير مباشر للأقليات. وفي المدارس تجدد الشيء ذاته، حيث كتب التاريخ لا تتكلم عن تاريخ الاقليات الدينية، او العرقية، بل تتجاهلها. فتجد في البلاد العربية مثلاً، ان التاريخ هو التاريخ الاسلامي العربي، فلا حديث عن تاريخ قبل هذا التاريخ أو غير هذا التاريخ لإخفاء وتهميش كل ماله علاقة بتراث الأقليات الدينية والعرقية الأخرى.

وعادة في كل ما يتعلق بالحروب الاسلامية تُستخدم عبارة الفتوحات الاسلامية، وكل ما يتعلق بما عداها يدعى الغزو الاستعماري. فاحتلال تركيا لسورية يندرج تحت عبارة الفتح الاسلامي، واحتلال فرنسا لسوريا يندرج تحت عبارة الاستعمار الفرنسي، والاستقلال عن تركيا ليس له عيد او ذكرى، لكن الاستقلال عن فرنسا له ذكرى سنوية. احتلال العرب القادمون من شبه الجزيرة العربية لكل الدول يدعى فتحاً مبيناً، واحتلال الرومان لأي دولة يدعى غزوا او استعماراً صليبيّاً. إن هذا التشويه المقصود يؤثر بشكل كبير على الهوية الاجتماعية والهوية الوطنية والهوية العرقية، وغيرها.

٤) تأثيرات العالم الخارجي: إنّ المُتتبع للصراعات التي نشأت، وتنشأ بين أبناء الأديان المختلفة داخل الدولة الواحدة، يُدرك تماماً، أنّ هذه الصراعات في أساسها، هي قضية سياسية، تُثيرها قوى خارجية، لمصالح خاصة بهذه القوى. وفي كلّ مرة تُثار قضية صراع ديني في البلاد التي تُدعى العربية، أو في بلاد العالم الثالث، حيث الهويات الدينية المتعددة. فإنّ هذا الصراع يكون وسيلة، لتدخل الدول الغربية في سياسات هذه البلاد بحجة حماية الأقليات، وخصوصاً المسيحية. فتتحول هذه الأقليات المغبون حقها إلى ورقة، تستغلها دول الغرب، لتحقيق مصالحها، وذلك بالضغط على هذه الدولة او تلك. وبدل ان تفهم هذه الدول، أنه ينبغي تصحيح

علاقتها مع الأقليات لديها، مع الأسف تأخذ منحاً مختلفاً، فتضغط أكثر على هذه الاقليات عندما تتهمها بالعمالة للغرب. وهذا ما يشجع الأقليات على التخلي عن هويتهم الوطنية التي تسبق هويتهم الدينية، وأحياناً محاربتهم.

وإذ يهاجرون من البلاد التي يقيمون فيها الى الغرب، سرعان ما يتخلون عن الهوية الوطنية، والهوية الدينية، والكثير من مكونات هويتهم الفردية، في سبيل الانتماء لجماعة جديدة مختلفة عنهم. وهكذا تتغير الهوية الاجتماعية مع تغير اختيار الفرد بالانضمام لهذه الجماعة أو تلك.

٥) صراع الهوية الفردية مع الهوية الاجتماعية: ان الهوية الفردية في صراع دائم مع الهوية الاجتماعية، بما تحمله من قيم. وهي عادة اسرع تغيراً من الهوية الاجتماعية. وما يساعد على تغيير هذه الهوية الفردية، هو اصرار الهوية الاجتماعية على البقاء ضمن نظام جامد لا يقبل الانفتاح أو التطور، متمسكة بعادات بالية، أو أفكار ضعيفة، عمرها مئات السنين.

إن هذا الصراع بين الهويتين يظهر في المدينة بشكل اوضح من الريف، حيث تكون الهوية الاجتماعية في المدينة خاضعة لمؤثرات ثقافية وصحية وعلمية قوية تفتقدها حياة الريف. وما يساعد على اضعاف الكثير من القيم التي تتبناها الهوية الاجتماعية وجود حكومات قوية ومنفتحة على التطور الحضاري والعلمي.

الفصل الخامس

الهوية الوطنية (القومية)

* تعريف الهوية الوطنية^١:

تُعرف الهوية الوطنية بأنها كل ما يُعطي الخصوصية والتميز لأيّ دولةٍ وشعبها، ويشكل جوهر وجودها وشخصيتها المتميزة.

* عناصر الهوية الوطنية:

ان الهوية الوطنية في كل أمة تُترجم روح الانتماء لدى أبنائها، وبدونها تفقد الأمم كل معاني وجودها واستقرارها، بل يستوي وجودها من عدمه. وهذه الهوية لها عناصر لا بد من توفرها، يختلف بعضها من أمة لأخرى، وهي تتمثل بالأمور التالية:

الموقع الجغرافي: أي من يشتركون في الهوية الوطنية يضمهم موقع جغرافي محدد.

التاريخ المشترك: أي الذي يربط من يشتركون في الهوية الوطنية الواحدة، ويتمثل بجملة الأحداث التي مرت بأبائهم وأجدادهم بصفتهم الجماعية على هذه الأرض.

الاقتصاد: كنظام العملات الموحد، ونظام التسعيرة الموحد لبعض السلع الاستهلاكية.

العَلَم الواحد: الذي له رسم وشكل محدد بألوان محددة، وهو الرمز المعنوي الذي يجمع كل أبناء الشعب الواحد.

الحقوق المشتركة: حيث يتمتع أبناء الهوية الوطنية الواحدة بالحقوق ذاتها، كحق التعليم، وحق التعبير عن الرأي، وحق الملكية، وحق البناء فوق أرضهم، وحق العمل، الخ..

^١ - الإنسان الذي يعيش في دولة ما، وتُعطيه هذه الدولة هُويته يدعى بالمواطن.

الواجبات: وهي الواجبات الفردية التي يقوم بها الافراد كل في مجال عمله وتخصصه ونشاطه. والواجبات الاجتماعية التي يتعين على المجموع الوطني القيام بها، كمؤسسات التربية والتعليم، ومؤسسات الصحة والبيئة، والمواصلات، والسلطة الحاكمة بكل مؤسساتها التشريعية والتنفيذية، وغير ذلك من مسميات وطنية تحمل روح العمل الجماعي لخدمة الوطن والمواطن.

* العلاقة بين الوطنية والقومية:

إن الوضع الطبيعي للأمة ان تُشكل عبر تطورها التاريخي دولة قومية واحدة مستقلة ذات سيادة، مثل المانيا وفرنسا وغيرهما، وفي مثل هذه الدول ينطبق مفهوم الوطنية على مفهوم القومية. بينما هناك العديد من الأمم التي انقسمت بسبب الحروب الداخلية او الخارجية الى دويلات، كل دويلة مستقلة عن الأخرى، ولأسباب خاصة ساهمت حكومات هذه الدويلات بتعزيز النزعة الوطنية. ولكن مع ذلك، فإن هذه الدويلات بمرور الوقت ستلتحم مع بعضها البعض لتعود فتشكل دولة قومية موحدة.

ومن الغريب ان بعض الدول العربية لديها الإصرار بأن كل الدول العربية هم أمة واحدة، تجمعها روابط اللغة والتاريخ والوحدة الثقافية. ناسين او متناسين، ان التاريخ بين هذه الدول مختلف، والثقافة مختلفة، والحدود الجغرافية تؤكد ان هذه الدول كانت منفصلة تاريخياً بعضها عن البعض الآخر، وفي أحيان كثيرة كانت هذه الدول في حالة عداء وحروب.

ان هذه الشعارات هي احلام لا يمكن تحقيقها، لأنها مأخوذة من لحظة استعمارية سقطت فيها كل هذه الدول تحت الاستعمار العربي القادم من شبه الجزيرة العربية. وإذ فرضَ هذا الاستعمار لونا دينيا واحدا على الجميع، وطمس كل

الهويات، وصهرها في الهوية الدينية التي أتى بها، ظن البعض^١ ان الهوية الدينية هي الهوية القومية وان التاريخ المشترك يبدأ مع هذا الغزو الاستعماري، فنادوا بان العرب أمة واحدة ينبغي ان تنصهر هوياتهم الوطنية في بوتقة الهوية القومية. لكن ليست هكذا، والتاريخ يقول ان هناك أمماً، وليس أمة واحدة، وان هذه الأمم المشتتة في دويلات عندما تصل الى لحظة من الوعي الثقافي ستعود وتتشكل من جديد، ولكنها لن تندمج بعضها مع البعض الآخر لتشكّل أمة عربية واحدة.

* العلاقة بين الوطنية والعشائرية:

ينبغي في البداية ان نُميّز بين مصطلحين مختلفين، ولكن متشابهين في عيون الكثيرين، وهما العشيرة والعشائرية. فالعشيرة قديمة قَدَم المُجْتَمَع وهي قائمة إلى اليوم حتّى في أكثر البلدان تقدُّماً. إنّها أشبه بأسرة كبيرة مُتدَّة يربطها الدم كونها آتية من أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدة. أمّا العشائرية فهي عقلية أو اتّجاه يسعى إلى تحويل العشيرة إلى نوع من الحزب السياسي في مواجهة العشائر الأخرى. أو بتعبير أبسط، العشائرية هي الفكر الذي يسيطر على العشيرة. وبالتالي تُعرّف الهوية العشائرية بأنها الانتماء للفكر الذي يميز هذه العشيرة أو تلك.

كانت الهوية العشائرية ضرورة اجتماعية توثّق علاقات الأفراد معاً، بحيث يشعُر كلّ فرد بالفخر والاطمئنان نتيجة انضمامه لهذه العشيرة أو تلك. وكانت الدولة تتواصل مع المواطنين عن طريق شيوخ هذه العشائر. ولكن التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية أضعفت دور العشيرة وسلطتها، وبالتالي اضعفت الهوية العشائرية التي دخلت في تنافس مع الهوية الوطنية. وفي ايامنا هذه لم تعد تُستخدم هذه الهوية إلا في الانتخابات البرلمانية او البلدية.

١- في القرن التاسع عشر ظهر بعض الادباء والمفكرين العرب الذين عملوا على نشر الفكر القومي العربي، أمثال محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥م)، ونجيب عازوري الذي أسس غصبة الوطن العربي عام (١٩٠٤م) وصادر كتابا باللغة الفرنسية بعنوان (يقظة الامة العربية).

* الهوية الوطنية والإنجاز:

بعض المجتمعات يكون تقديرها للفرد مرتبط بإنجازاته، وبعضها الآخر يكون تقديرها للفرد مرتبط بكونه فرداً في المجتمع. إن هذا التباين في التقدير يؤثر سلباً أو إيجاباً على هوية الفرد الوطنية.

مع الأسف في أغلب دول العالم الثالث والدول العربية، يتم التقدير بحسب الانجاز، فيعمل الجميع ليحققوا الإنجازات ويحصلوا على التقدير. ولكن ماذا عن الأشخاص العاديين الذين ليسوا من المتفوقين، أو من أصحاب الإنجازات العالية. وبالحرى ماذا عن الشخص الذي توقّف عن تحقيق الإنجازات بسبب المرض، أو التقدم في العمر، أو عندما يُحال إلى التقاعد (المعاش)؟

عندما يُنسى من أُحيل على المعاش، ويُهمل من هو محدود في امكاناته الشخصية، سيتكون انطباع لدى الفرد بأنه ليس ذا قيمة في مجتمعه، وهذا ما يؤثر سلباً على هويته الوطنية. لذلك ينبغي تغيير نظرة المجتمع الى الافراد. الانجاز ضروري، نعم، ولكن التقدير لا ينبغي ان يكون لسبب انجازات الناس المحكومة بظروف متنوعة، بل لأنهم خليقة الله المميّزة التي تستحق الاحترام والتقدير.

* الهوية الوطنية والعولمة:

شهدت أواخر القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين تغييرات ضخمة في الأنظمة السياسية، والثقافية حول العالم، وكان ذلك مصاحباً لثورة تكنولوجية في مجالات الاتصالات والإعلام، وقد عُرفت تلك التغييرات والتأثيرات المُواكبة لها بالعولمة، وكان من أبرز ملامحها ذوبان الفوارق بين الحدود والثقافات المختلفة، واتخاذ النموذج الغربيّ سبيلاً للحياة الفردية بعد اعتماد النموذج الاقتصادي الحرّ كسياسة للدولة.

وبسبب الكم الكبير من الاحداث، او الصراعات التي ولدتها العولمة، انقسم الأفراد والمفكرين الى قسمين، الأول، هم مجموعة تيارات عصرية حديثة نادوا بإلغاء الهوية الوطنية. الثاني، هم الذين اصرروا على التمسك بمفاهيم الهوية الوطنية، لأن العولمة سببت لمجتمعهم الكثير من الهزات الاجتماعية والثقافية العنيفة.

ولكن على ما يبدو فان المشاعر الوطنية، والعواطف، تتأجج دوماً، وتجد طريقها للتعبير العفوي عن الهوية الوطنية، لدرجة يبدو معها ان البشر قد خلقوا جميعاً على طبيعة الانتماء الى وطن. لذلك ستبقى الهوية الوطنية أكثر الهويات مقاومةً لمفهوم العولمة.



الفصل السادس

الهوية الثقافية

* تعريف الهوية الثقافية:

إنها هوية مجموعة ما، أو شخص ما. وهي عبارة عن كمّ من التراكبات الثقافية والمعرفية، سواء كانت تلك المعارف تأتي انطلاقاً من تقاليد وعادات في العائلة والمجتمع المحيط بها، أو انطلاقاً من الدين. وهي تسير إمّا باتجاه الانكماش والتقلص، أو باتجاه الانتشار.

تُعتبر الهوية الثقافية أفضل مُعبّر عن الخصوصية التاريخية لمجموعة ما، أو أمة ما. كما وتعتبر أفضل مُعبّر عن نظرة هذه المجموعة أو الفرد إلى الكون، والموت والحياة، ومهام الانسان، وحدوده، وقدراته، والمسموح له، والممنوع عنه.

* الهوية الثقافية والعولمة:

إنّ تأثير العولمة على البشر حطّم ما كان يُعتبر يوماً من المُسلّمات، كما أنّ سهولة التنقل، وسرعة السفر، واختراع الإنترنت، تُعتبر من العوامل التي ساعدت الناس، لفهم وجهات نظر مُتعدّدة لم تكن معروفة سابقاً. والحق يُقال أنّ زمن المجتمعات المُتجانسة والمُغلقة على نفسها ينطوي سريعاً بدون رجعة.

يعتقد البعض أنّه يستحيل وقوع الهوية الثقافية تحت مقولة العولمة، وذلك لتعدد الثقافات حول العالم، حيث إنّهُ لا توجد ثقافة عالمية واحدة، بل ويستحيل أن تتواجد في يوم من الأيام. وأيضاً لأن الثقافات المتعددة والمتنوعة المتواجدة على مستوى الأفراد والجماعات والأمم، تعمل كل منها بصورة عفوية وتلقائية للمحافظة على مقوماتها وكيانها الخاص.

ويعتقد البعض الآخر ان العولمة أثّرت على الهوية الثقافية للأفراد في الوطن الواحد، من خلال تغيير أنماط المعرفة والتفكير لديهم، مما أدى لظهور مفاهيم جديدة مشتركة بين البشرية بصفة عامة. وهذه المفاهيم عملت على خلق عالم جديد بلا حدود ثقافية تُهيمن عليه الثقافة الغربية وقيمها من خلال الإعلام، الذي يُعدّ الأداة الأولى لهيمنة العولمة بكافة أشكالها.

تبدأ تأثيرات العولمة عادة من اللغة، حيث يتم استخدام اللغات الغربية ك لغاتٍ رسمية في المقررات الدراسية، وفي الخطاب اليومي بين أفراد المجتمع الواحد، وتصل إلى التأثير الأخلاقيّ السلبي أو الإيجابي، من خلال الاعلام وشبكة الإنترنت، بما يحمله من قيم غايتها فرض النموذج الغربي.

إنّ الهزّات الثقافية والاجتماعية التي تُحدثها العولمة لدى الشعوب المُختلفة تُؤدّي إلى العديد من المظاهر السلبية أو الإيجابية. فمن جهة قد يُؤدّي الانسلاخ من الهوية الثقافية بالعديد من المجتمعات إلى ردّاتٍ ثقافية وأخلاقية عنيفة، ينمّيها الشعور الديني، في سبيل الحفاظ على الوجود، حيث تكون الهوية هشة، وغير قادرة على مواجهة منطق الثقافة القادمة.

ومن جهة أخرى قد تتجاوب المجتمعات مع فكرة الانسلاخ من هويتها الثقافية، والانخراط في هوية جديدة تتيح لها مجالاً أوسع للحاق بركب المجتمعات المتقدمة علمياً واقتصادياً.

ان مقولة: (التغيير الثقافي السريع غير مقبول لأنه يزعزع استقرار المجتمع) مقولة خاطئة، لأن المجتمعات التي لا تشارك بالتغيير السريع هي مجتمعات تحكم على نفسها بالموت السريع.

صحيح ان العولمة هي حوار بين الثقافات يُبرز التمايز والخصوصية لكل هُويّة ثقافية، لكنه بالحقيقة غزواً ثقافياً يمارسه الأقوى على الأضعف، وفيه تتلاشى الهُويّات غير المنطقية بشكل تلقائي. وحتى لو لجأت هذه الهُويّات الضعيفة للقوة في اثبات ذاتها، فان هذا لن يكون اكثر من وقت يُصرف في جنازة ميت قبل ان يوضع في قبره، ويُغمر بالتراب.



الفصل السابع

الهوية الجنسية

* **تعريف الهوية الجنسية:** هي ادراك الشخص لكونه ذكراً أو أنثى، وأنه ينتمي لجنسه شكلاً ومضموناً. وتضطرب هذه الهوية عندما يشعر الشخص بعدم الارتياح نحو الجنس الذي ولد به.

وإذ نتحدث عن الهوية الجنسية لابد ان نتطرق إلى مغايري الهوية الجنسية، وإلى المثلية الجنسية باعتبارهما اضطراباً في الهوية الجنسية.

* **تعريف مغايري الهوية الجنسية (مشتهي تغيير الجنس):** هم الذين يريدون تغيير جنسهم، أو يشعرون أنهم ولدوا على الجنس الخطأ.

* **تعريف المثلية الجنسية،** هي توجه جنسي، يتصف بالانجذاب الجنسي، أو الشعوري، بين أشخاص من نفس الجنس.

* التصنيفات الرئيسية للميول الجنسية عند البشر

١- **المثلية الجنسية:** المثلي جنسياً هو الذي يجذب بشكل أساسي إلى أشخاص يماثلونه في نوع جنسه، وقد يجذب بصورة ضئيلة أو معدومة إلى الجنس الآخر، وليس من الضروري أن يعبر الشخص عن ميوله الجنسية من خلال ممارسة الجنس فعلياً.

ان الذكر ذو الميول المثلية يلقب (مثلياً) أو (مثلي الجنس)، وقد يعبر عنه بالمصطلح غير الحيادي (شاذ جنسياً)، أو بمصطلح (لوطي). والأنثى ذات الميول الجنسية المثلية تُلقب (مثلية الجنس) أو (سحاقية).

٢- **المغايرة:** أي الذي يجذب للجنس الآخر ويدعى أيضاً (سويّاً).

٣- ازدواجية الميل الجنسية: أي الذي ينجذب للجنسين، ويدعى أيضاً «مشتهي الجنس».

* التفسير العلمي للميل الجنسية؟

في العلم لا يُعْتَبَر الميل الجنسي اختياراً، وإنما تفاعلاً معقدًا لعوامل بيولوجية وبيئية. ورغم الاعتقاد الشائع بأن السلوك المثلي هو شذوذ أو اختلال، فقد أظهرت الأبحاث أنَّ المثلية الجنسية هي إحدى التنوعات في الجسانية الإنسانية.

بالحقيقة ما من إجماع علمي على العوامل التي تحدد التوجهات الجنسية، وليس من المعروف إن كان الميل الجنسي يتكون بنفس الشكل لدى النساء والرجال، وقد تم اقتراح العديد من التفسيرات، لكن لم يتم إثبات أي تفسير. أما التفسيرات التي اقترحت فيمكن تصنيفها علمياً ضمن ثلاثة عوامل رئيسية: هي الجينية، والبيولوجية أثناء نمو الجنين، والبيئية النفسية.

* متى يُفصح الشخص عن ميوله الجنسية أو هويته الجنسية؟

يتم الإفصاح عادة على ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى هي الإدراك، إذ يدرك الشخص أن له ميولاً مثلية.

المرحلة الثانية هي اتخاذ القرار بالكشف للآخرين عن هذه الميول.

المرحلة الثالثة هي تقبّل الشخص لميوله، وبالتالي يبدأ يعيش حياته كمثلي جهاراً.

في الماضي أُجريت تجارب عديدة في محاولة لتغيير التوجهات الجنسية (وبالتحديد تحويل الميول المثلية إلى مغايرة، أي إلى طبيعية)، وذلك بواسطة التحليلات النفسية، أو بواسطة الأدوية ووسائل علاج أخرى تُعرف بعلاجات التحويل. لكن الغالبية العظمى من المؤسسات الطبية في مجالات علم النفس، والطب النفسي تقول بأن

التوجه الجنسي ليس اختياراً، وبالتالي هو غير قابل للتغيير.

إن السلوك المثلي ليس مقتصرًا على الإنسان فقط، بل هو منتشر وشائع في مملكة الحيوان، وهو يتضمن التزاوج، طقوس المغازلة، الارتباط الزوجي، وتربية النسل. وكمثال على ذلك الإوز الأسود، فقد لوحظ أن ربع أزواج الإوز الأسود هم أزواج مثليين من الذكور، ويقوم الزوجان المثليان أحياناً بسرقة الأعشاش، أو تكوين علاقة ثلاثية مؤقتة مع أنثى الإوز من أجل الحصول على بيوضها ومن ثم يَطرُدُنَّها. وقد تمت ملاحظة السلوك المثلي في نحو ١٥٠٠ نوع من أنواع الحيوانات التي تراوحت من الرئيسيات، إلى الدود الشصي.

* الهُويَّةُ الجندريَّة:

هي بنية اجتماعية من الأفكار (الثقافة السائدة) التي تحدد الأدوار التي يقوم بها كل من الذكر والأنثى في المجتمع الواحد، بغض النظر حول الفروقات البيولوجية بينهما^١ ليكونا مقبولين اجتماعياً.

ولأن الثقافة السائدة في المجتمع الواحد تتغير بمرور الزمن، وتختلف من مجتمع لآخر حول ما هو مناسب للرجل وما هو مناسب للمرأة القيام به، وما يجب أن يكونا عليه، فإن الهُويَّةُ الجندريَّةُ هُويَّةٌ متغيرة.

بكلمات أخرى يرمز المصطلح الى الطريقة التي يجب أن يتصرف الفرد بها بناءً على الثقافة السائدة، ان كان من جهة المظهر الخارجي او الأدوار الاجتماعية. فهذه الثقافة هي التي تحدد معنى الانوثة وكيف يجب ان تكون، وكذلك ماهي الذكورة وكيف يجب ان تكون. وبالتالي يتوقع المجتمع من أفراد الجنسين ان يتصرفوا وفق هذا النظام ليكونوا مقبولين اجتماعياً.

١ - أي أن المرأة والرجل ينبغي النظر إليهما من منطلق كونهما إنسان، بغض النظر عن جنس كل منهما.



رموز الجندر: من اليسار أنثى، ومن اليمين ذكر، طبقاً لرموز (فينوس ومارس)

على سبيل المثال، متوقع بناءً على التفكير التّمطي السائد ان تحمل النساء مسؤولية (البيت، الاولاد، العائلة)، بينما الرجال ان يحملوا مسؤولية (العمل، السياسة، الاقتصاد). كما وتنسب للنساء مثلاً صفات محددة كالعاطفية، بينما للرجال العقلانية. أي تنحصر العاطفة بالمرأة والعقل بالرجل. وهكذا تُقيّم المرأة إيجابياً وتُحترم عندما تُظهر ضعفها، وتُحتقر عندما تُظهر علامات القوة. بينما يُقيّم الرجل إيجابياً لقوته ولعدم انجراره وراء العاطفة، ويُحتقر عندما يُظهر مشاعره، فيبكي مثلاً.

هناك أدوار ما زالت محظورة على المرأة في المجتمعات الشرقية، إمّا بسبب صُعوبة العمل فيها، حيث أنّها تتطلب بُنية جسدية قوية (البناء، الحفريات، قيادة الآليات الثقيلة)، أو لأنّ المُجتمَع لا يتقبّل هذه الفكرة، إذ هو ذكوري في خطاباته وأدواره، وتسوده ثقافة العيب. وهناك مجتمعات مازالت الذكورية وما يرتبط بها من أدوار طاغية فيها، لدرجة انه لا يمكن للمرأة ان تتواجد مع رجل في نفس المقعد في القطار، أو الطائرة، أو مقعد الدراسة، خوفاً من الاختلاط أو الاحتكاك معه. وفي بعض المجتمعات تُمنع المرأة من قيادة السيارة، أو الذهاب الى طبيب، أو فتح باب المنزل، أو حتى الرد على الهاتف.

أما الطامة الكبرى، فتتمثل في ازدواجية التفكير عند الرجال في هذه المجتمعات، فمن جهة يرفض مساعدة زوجته في المنزل، وكذلك تربية الأطفال، بحجة أنّه رجل

ولا ينبغي ان يقوم بأعمال هي من (اختصاص النساء)، ومن جهة أخرى عندما يُهاجر إلى الغرب بحجة العمل والدراسة، لا يتردد في العمل في المطاعم هناك وغسل الصحون. وبينما يرفض المسابح العائلية في مجتمعه، تراه اول المندفعين الى المسابح المختلطة في الغرب. إن هذه الازدواجية في التفكير؟ هي نتاج ثقافة العيب التي ينبغي ان تتغير.

* مشاكل الجندر

١- ان الجندر يرى الافراد اما اناثاً او ذكوراً فقط، وهذا ليس واقعياً، لأن هناك افراداً بهم صفات من الجنسين ويصعب تصنيفهم كذكر او انثى مثل (الانترسكس)، وهذا يعني أن ليس كل ذكر هو رجل، وليست كل أنثى هي امرأة، والعكس صحيح.

٢- هنالك افراد يعيشون تجارب جنسية مختلفة حيث يشعرون، بدرجات متفاوتة، بعدم التلائم بين جنسهم البيولوجي والنوع الاجتماعي. الأفراد الذين يعيشون هذا الشعور يتم تسميتهم بمغيّري النوع الاجتماعي (ترانس جندر).

٣- بعض الافراد يرون بتغيير جنسهم البيولوجي خطوة ضرورية للوصول الى التعبير الجندري الملائم لهم، وفي حال كان هنالك قرار بخوض عملية التغيير (عن طريق هورمونات، عمليات تجميل، او عمليات تغيير الجنس)، يُسمى الشخص (مغيرو الجنس) (ترانس سكسوال). يشار ايضا الى هؤلاء الاشخاص بالمتحولين، من دون الخوض في التفاصيل اذا كان التحول في النوع الاجتماعي او في الجنس.

* المثلية الجنسية من الرفض الى القبول

ثمة أدوار كان يقوم بها الرجل وهي محظورة على المرأة والعكس صحيح، ومع مرور الوقت ما كان من أدوار تخص الرجل صار مباحاً للمرأة والعكس صحيح،

وهكذا بدأت تختلط الأدوار وتنقلب الموازين حتى صارت المثلية المحظورة في وقت من الأوقات، مقبولة في وقت آخر. فمثلاً، بينما استمر تنفيذ عقوبات الإعدام للمثليين حتى عام (١٨٠٣م) في هولندا، وحتى عام (١٨٣٥م) في إنجلترا. نرى اليوم إن قوانين التسامح مع المثليين هي التي تسود، لأن الثقافة اختلفت، أي الهوية الجندرية تغيرت. في عام (١٨٦٧م) أصبح (كارل هينريخ أولرخس) أول مثلي يدافع علناً عن المثلية الجنسية، حين نادى بقرار يحث على إلغاء القوانين ضد المثلية الجنسية في مؤتمر الحقوقيين الألمانين في ميونخ.

في أوائل القرن العشرين بدأت بعض دول العالم الغربي برفع التجريم عن السلوكيات المثلية، ومنها بولندا عام (١٩٣٢م)، الدنمارك عام (١٩٣٣م)، السويد عام (١٩٤٤م)، والمملكة المتحدة عام (١٩٦٧م). أما حصول المثليين على الحقوق المدنية فتأخر الى منتصف السبعينات.

نقطة التحول في المثلية الجنسية كانت عام (١٩٧٣م) حين قامت -الجمعية الأمريكية للأطباء النفسيين- بشطب المثلية الجنسية من الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية، أي ألغت تعريفها كاضطراب نفسي أو شذوذ جنسي، وبناء عليه خلال الثمانينات والتسعينات سنّت معظم الدول الغربية قوانين تمنع التمييز ضد المثليين في فرص العمل والإسكان والخدمات.

منذ منتصف القرن العشرين، بدأ رفع التجريم عن المثلية الجنسية تدريجياً، ولم تعد تصنف كمرض في معظم الدول الغربية. وقد ظهرت حركة عالمية منذ نهاية القرن التاسع عشر تهدف لزيادة الاعتراف بالمثليين وتواجههم العنفي والمساواة بحقوقهم الشرعية، بما فيها حقوق الزواج، التبني، العمل، الخدمة العسكرية، العناية الطبية، وكذلك سن تشريعات تحمي القاصرين المثليين.

في عام ٢٠٠٨ قَدَّرت جمعية المثليين العالمية عدد الدول التي تُجرِّم المثلية الجنسية في أفريقيا بحوالي ٣٨ دولة، بينما هناك على الأقل ١٣ دولة تسمح بها. وفي آسيا على الأقل ٢٠ دولة، المثلية الجنسية فيها قانونية، ومنها الصين، اليابان، هونغ كونغ، تايلاند، فيتنام، كوريا الجنوبية، والهند.

بينما في الدول العربية، تُعتبر المثلية الجنسية في الأردن (منذ عام ١٩٥١) قانونية، وفي العراق منذ عام (٢٠٠٣) قانونية، وهي كذلك في البحرين منذ العام (١٩٧٦) لمن هم فوق سن الواحد والعشرين. وفي الكويت وقطر العلاقات المثلية بين النساء قانونية، لكنها ممنوعة بين الرجال. في الأراضي الفلسطينية، المثلية الجنسية بين الرجال ممنوعة في غزة فقط.

وهناك أيضاً دول ذات أكتريّة مسلمة تضمن حقوق المثليين مثل ألبانيا- وسيراليون- وغينيا بيساو- وتركيا- وكازخستان.

أما إسرائيل فتُعتبر الدولة الأكثر تسامحاً تجاه المثليين في الشرق الأوسط. تُعتبر المنظمات الداعمة للمثليين نادرة في المجتمعات العربية والإسلامية، وعادةً لا تستطيع حماية المثليين من القوانين المُجرِّمة لهم، وهذه المنظمات بدأت بالازدياد والنمو حديثاً، ومنها الفلسطينية مثل، منظمة القوس وأصوات، واللبنانية مثل حلم، والجزائرية مثل جمعية أبو نواس.

أكثر الرموز البارزة التي يستعملها الناشطون والمنظمات التي تهتم بمسائل المثليين هي المثلث الوردي^١، وعلم قوس قزح (علم الفخر)^٢، الذي أُتخذ منذ عام ١٩٧٨ كرمز دولي للمثليين والمثليات.

١ - استخدمه بالأصل النازيون في فترة الهولوكوست لتصنيف المثليين الجنسيين من الرجال في معسكرات الاعتقال. وهو مثلث متساوي الأضلاع، لونه وردي، ورأسه الى اسفل.

٢ - ذو الألوان الستة، مرتبة من الأعلى الى الأسفل على الشكل التالي، (احمر، برتقالي، اصفر، اخضر، ازرق، نيلي)، وهو شعار معروف لحركات تحرير المثليين الجنسيين، حيث ألوانه ترمز إلى التنوع والتسامح الذي يدعو إليه. وهو يُعرف باسم علم الفخر، وذلك لأنه يهدف للتعبير عن تقدير هذه المجموعة لأنفسهم وشعورهم بالفخر الذي يرون أنهم حُرموا منه بسبب اختلافهم بميولهم الجنسية أو بهويتهم الجنسية.

إن موضوع المثلية في العالم العربي بشكل عام محظور، حيث التحاملات والأفكار المسبقة القمعية تحيط بالمثلية الجنسية، ويُنظر إليها عادةً على أنها ظاهرة شاذة، منفردة، غير مقبولة، لا تجوز دينياً، ومستوردة من الغرب. أو هي خيارٌ منحرفٌ، أو علامة على مرضٍ نفسي. ورجال الدين يستنكرون موضوع المثلية، ويعتبرونه خطيئة. أمّا الإعلام والأفلام والكتب عامةً، فتتردد في تناوله بشكل مباشر باعتباره (عمل مشين) أو (سلوك شاذ). نتيجة لذلك، غالباً لا يُعبّر المثليون عن ميولهم علناً، ويُتقون الأمر سراً.

أما الحكومات وعامة الناس في العالم العربي فغالباً ينكرون وجود المثلية عندهم، أو يتجاهلوها. وأحياناً يُجبر المثليون العرب والمسلمون على الزواج من شخص من الجنس الآخر من أجل الحفاظ على سمعة العائلة.

* الكتاب المقدس والمثلية الجنسية

ما هي نظرة الكتاب المقدس إلى المثلية الجنسية، أي إلى الانجذاب الجنسي، أو الشعوري، بين أشخاص من نفس الجنس؟

تقول كلمة الرب: «فَخَلَقَ اللهُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ... ذَكَراً وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ. وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمُ: «اُثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلَأُوا الْأَرْضَ»^١. وهذا يعني أن الله قد خلق جنسين فقط لا ثالث لهما، الذكر والأنثى. وهذه الثنائية تحفل بها خليقة الله، لاحظ مثلاً عندما أمر الرب نوحاً ببناء الفلّك لكي يجلب لاحقاً الطوفان على الأرض، أمره أن يدخل هو وزوجته إلى الفلّك (السفينة)، وأن يدخل أبناءه الثلاثة وزوجاتهم الثلاث إلى الفلّك، وأن يدخل كلّ حيٍّ من كلّ ذي جسد اثنين، ذكراً وأنثى. وبعد انتهاء الطوفان طلب الله إلى نوح أن يخرج هو وامرأته وبنيه وعائلاتهم

١- تكوين ١: ٢٧ - ٢٨.

وكلّ الحيوانات التي معه لتتوالد في الأرض وتُثمر وتكثر على الأرض. فمُخَطَّط الله مِنَ البداية واضحٌ، اذ خلق الكائنات الحيّة جميعها (إنسان، حيوان) ذكراً وأنثى لتتوالد. إذا من مقاصد الله في خلق الإنسان ذكراً وأنثى هو نشوء علاقة مُقدَّسة بين رجلٍ واحدٍ، وامرأة واحدة يُختارها زوجةً وشريكةً لحياته، ولا يُفترق بينهما إلّا الموت. لكن سقوط آدم وحوّاء جَلَبَ الدمار على الخليقة بأسرها فالأرض أصبحت ملعونةً بسبب آدم، وطبيعة الأشياء كلها قد تغيرت اذ سادت عليها الخطيئة، ومالت الخليقة بأكملها لتعمل ضد قداسة الله، أي ضد القانون الأخلاقي الذي وضعه الله للجميع.

وهاهو الكتاب المقدس يخبرنا عن قايين الذي قام على أخيه هابيل وقتله، وعن لامك الذي اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ امْرَأَتَيْنِ، وعن رجال سدوم وعمورة الذين يفعلون الفحشاء ذكورا بذكور، والقائمة تطول.

ونحن اليوم في عصر لم يعد فيه مبدأ أخلاقي ثابت، فالأمور تتغير من مجتمع لآخر ومن ثقافة لأخرى. وماهو مُحَرَّم اليوم غداً مستباح والعكس صحيح.

لذلك نحتاج الكتاب المقدس الذي يحوي القيم الأخلاقية النابعة من شخصية الله الصالحة، والتي لا تتغير بمرور الزمن ولا باختلاف ثقافات البشر، ليكون دستورنا وميزان أخلاقنا، ومنه نصوغ كل ما نحتاجه من تعاريف أخلاقية.

الكتاب المقدس يميز ما بين المثليّة، والممارسة المثلية. فالمثلية أمر طبيعي إذ ان الإنسان لا يتحكم بِهُوِيَّتِهِ الجنسية، ولكن الممارسة المثلية الجنسية هي الأمر غير الطبيعي، لأنها ضد القانون الطبيعي للخلق.

في قصة سدوم وعمورة نجد ان الرب قد أمطر من السماء كبريتاً وناراً وقَلَبَ تلك المُدُن وكلّ الدائرة وجميع سُكَّان المُدُن ونباتات الأرض، بسبب المثلية الجنسية.

ومع ان الثقافة السائدة، أي الهوية الجندريّة لأهل سدوم وعمورة في ذلك الوقت تقول، ان الممارسة المثلية أمرٌ مشروع. لكننا نجد أن الرب لا يوافق الجماعة رأيها، والكتاب المقدس يقول، «وَكَانَ أَهْلُ سَدُومَ أَشْرَارًا وَخُطَاةً لَدَى الرَّبِّ جِدًّا»^١.

ان رأي الكتاب المقدس في المثلية الجنسية، وفي دينونتها واضح، «إِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ ذَكَرٍ اضْطِجَاعَ امْرَأَةٍ فَقَدْ فَعَلَا كِلَاهُمَا رِجْسًا. اِنَّهُمَا يُقْتَلَانِ^٢. دُمُهُمَا عَلَيْهِمَا»^٣، هذه الآية ليست نبوية، لكنها قيلت في وقت قد سادت فيه المثلية الجنسية، التي يصفها الكتاب المقدس بالرجاسة، التي دينونتها الموت.

وفي رسالة رومية قيل عن ممارسي المثلية الجنسية: «الَّذِينَ إِذْ عَرَفُوا حُكْمَ اللَّهِ أَنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مِثْلَ هَذِهِ يَسْتَوْجِبُونَ الْمَوْتَ لَا يَفْعَلُوتَهَا فَقَطْ بَلْ أَيْضًا يُسْرِئُونَ بِالَّذِينَ يَعْمَلُونَ!»^٤، أي عندهم معرفة غريزية بأن هذه الأمور خطأ ولا تجوز، وأنها تجعلهم مستحقين الموت. ورغم ادراكهم لهذا الحكم يحاولون تبرير تلك الخطايا، ويتحدون مع الآخرين شركائهم في الخطيئة، لفعلها ونشرها.

وفي كورنثوس الأولى يُصنّف مضاجعوا الذكور ضمن قائمة الخطاة، الذين لا يرثون ملكوت الله.

ان الكتاب المقدس يعتبر المثلية الجنسيّة خطيّة تستوجب الدينونة، ولكنه مع ذلك يقدم عفواً وغفراناً للمثليين، كما يقدم العفو والغفران لكل الخطاة الذين يتوبون ويؤمنون بالرب يسوع المسيح. وهو يؤكد أن الذين سبق أن سقطوا في تلك الخطية البشعة، يستطيعون الآن أن يجدوا نتيجة إيمانهم بالرب يسوع المسيح ليس غفراناً فقط، بل تحريراً كاملاً من هذه الممارسات الجنسية المثليّة.

١ - تكوين ١٩: ١٣.

٢ - عادة من يأمر بتنفيذ هذا الحكم هم قضاة إسرائيل.

٣ - لاويين ٢٠: ١٣.

٤ - رومية ١: ٣٢.

إن العلاقات الجنسية ليست كل شيء في الحياة حتى يقال، ان المثلي لا يستطيع ان يتخلص من شهوته. فهناك الكثير من الناس غير المؤمنين، لسبب او لآخر قد خَصَّوْا انفسهم، أي امتنعوا عن هذه العلاقات الجنسية لأنهم مشغولون بأمور لها من الأهمية الشيء الكثير. وكذلك بعض المؤمنين، من اجل ملكوت الله قد خَصَّوْا انفسهم، فامتنعوا عن الزواج. ان الأمر ليس بهذه الصعوبة، فالشخص ذو الميل الجنسي المثلي عندما يَقْبَل نعمة الله المُخْلِصَة لحياته، يُصْبِح خَلِيقَةً جديدة في المسيح، بمعنى أنَّ الله يُسَاحِجُه على الماضي، ويمنحه القدرة لكي يغلب هذه العادة، كما منح القوة لغيره من المدمنين على المخدرات، او الكحول ليتخلصوا منها. فلا عذر لمن آمن بالمسيح أن يستمرَّ بممارسة خطاياها السالفة، من مثليَّة جنسيَّة، أو غيرها.

وبعد كل هذه النعمة، هل من عجب أن يكون غضب الله مُعلنًا من السماء على جميع فجور الناس وإثمهم؟ كلا. وإنما العجب كل العجب أن يكون خلاص الله مُعلنًا في الانجيل لهؤلاء الناس الخطاة، لا على أساس أعمال تُطلب منهم وهم اعجز من ان يؤدوها، بل على أساس الإيمان بما عمله المسيح لأجلهم.



الفصل الثامن

الهوية الدينية

* تعريف الهوية الدينية:

تتكوّن الهوية الدينية من خلال الإيمان بذات إلهية جديدة بالطاعة والعبادة، وهذا الإيمان مبني على نصوص دينية توفر جُملةً من العلامات الفارقة لهذه الهوية الدينية.

ولأن قراءة وفهم النصوص الدينية مرتبط بعاملين متغيرين هما، عامل النُضج الذاتي، وعامل البيئة الاجتماعية، تُعتبر الهوية الدينية هوية متغيرة غير مستقرة.

* الصراع بين الهوية الدينية، والهوية الوطنية؟

عادة ما تكون الهوية الوطنية هوية جامعة، أي تُراعي وتحترم خصوصيات الهويات الأخرى ضمن الدولة الواحدة، كالهوية العرقية، والهوية اللغوية، والهوية الدينية، الخ..

هذا المفهوم الجمعي للهوية الوطنية نراه واضحاً في الغرب، بينما مع الأسف، في الدول العربية ودول العالم الثالث نراه مشوشاً ومنقوصاً. فمثلاً، في الدول الغربية نجد المواطنون يتمتعون بحقوق كاملة غير منقوصة يكفلها الدستور الذي يُركي الأفضّل، بغض النظر عن المعتقدات الدينية أو السياسية أو الأصول العرقية. بينما في دول العالم الثالث ومنها الدول العربية لا يمكن ان تجد شخصاً في منصب حساس لمجرد كونه مواطن لديه الكفاءة. وفي الغالب يكون التعامل مع المواطن إمّا مبني على اعتبارات دينية، او على توجّهات مُشابهة لتوجّهات وانتماءات الحُكّام والمسؤولين.

إن هذه الطريقة من التعامل تجعل الكثيرين في البلاد العربية وبلدان العالم الثالث يشعرون بالاغتراب في أوطانهم، وهذا ما يُضعف لديهم حس الانتماء للهوية الوطنية. والدليل على ذلك يبدأ من هجرة المواطنين محطات التلفزة والإذاعات الرسمية للدولة التي يقيمون فيها، مروراً بطواير شباب دول العالم الثالث على أبواب سفارات أميركا والاتحاد الأوروبي طلباً للحصول على تأشيرة هجرة أو عمل، وانتهاءً بمحاولات هجرة غير شرعية تنتهي بالغالب بحوادث غرق مؤلمة، كما يحدث في أيامنا هذه.

إن غالبية الدساتير والقوانين التي تحتكم إليها الدول العربية تُنادي بأنّ دين الدولة هو الإسلام، وبالتالي فإنّ غير المسلمين في هذه الدول يُعاملون على أساس أنّهم أهل ذمة، فهم بالتالي قانونياً مواطنون منقوصو الحقوق وأقرب إلى مواطنين من الدرجة الثانية.

في غالبية الدول العربية تكون المناهج الدراسية ذات لون واحد، ويتمّ تجاهل بقية أطراف المجتمع حيث يتم التعتيم على التنوع الديني والعربي، لينتهي بجرمان الأقليات من حقوقها، ودفعها بشكل قسري الى الهجرة باتجاه الغرب كما يحدث مع المسيحيين والايديين في العراق.

وربما واحد من أكثر المصطلحات اذية والمستخدم في مناهج التعليم العربية هو مصطلح (الفتوحات الإسلامية)، حيث يشعر غير المسلم بانه مستباح في وطنه، وسيبقى كذلك حتى تتغير هويته او يرحل الى الغرب، الى مكان تُحترم فيه هويته الدينية. فكيف يمكن للفرد ان ينتمي لدولة تُهمشه، وتطلب منه في ذات الوقت ان يدافع عن وطن علمه^١ يحوي عبارات او رموز تستقصيه، ودستوره مُستمد من كتاب يعتبره أهل ذمة.

^١ - انظر الى العلم العراقي او السعودي او التونسي او الجزائري او الموريتاني لتكتشف الفكر الإقصائي للدول تجاه الاقليات الموجودة فيها. ينبغي ان تُستبدل بهذه الرموز رموزاً علمانية تؤكد على ان الدولة تحترم الجميع.

لقد لعب المسيحيون دوراً هاماً طليعياً في البلاد العربية والإسلامية الموجودين فيها، فقد أسسوا المدارس والجامعات والمستشفيات وكانوا همزة وصل بين بلادهم والغرب، ويسجل لنا التاريخ القديم والحديث أن أعظم الأطباء والمُترجمين، والمُثقفين، والذين قادوا النهضة في بلادهم كانوا مسيحيين. لكن الجهل والتعصب في البلاد العربية حوّل المسيحيين الى حمولة زائدة في مجتمعاتهم ينبغي التخلص منها. وهذا حال بقية الاقليات الذين هاجروا أو هُجروا من بلادهم الى بلاد أخرى أملاً في الحصول على هوية وطنية غير منقوصة يمنحهم إياها الغرب.

لقد أدركت دول الغرب أن الهويات الفرعية لأفراد المجتمع الواحد ليست مكوناً أساسياً من مكونات الهوية الوطنية، لذلك أعطت الحرية لكل فرد أن يكون حراً في اعتقاداته. ومن جهته أدرك الفرد بأن هويته الفرعية لن تحرّمه من كامل حقوقه التي يكفلها له الدستور كمواطن في تلك الدولة فتمسك بهويته الوطنية. بمعنى ان الكردي، أو الأرمني، أو المسيحي، أو الهندوسي، في الدول الأوربية ليس لديه قلق إن أعلن هويته الدينية أو العرقية، لأنه يدرك أن هذه الهوية لا تتعارض مع هويته الوطنية، وان الدولة تحترم خصوصيته، لذلك تراه متمسكاً بهويته الوطنية التي تضمن هويته الخاصة ان كانت دينية او عرقية او سياسية او ما شابه. بينما في الدول العربية ودول العالم الثالث، هناك صراع شديد بين الهوية الوطنية وباقي الهويات، خاصة الهوية الدينية، فيندفع الفرد للانتصار لهويته الخاصة على حساب هويته الوطنية التي تحرّمه من حقوقه. وهذا ما يؤدي بالتالي الى تفتيت البلدان التي لا تحترم خصوصيات مواطنيها. لذلك ينبغي على الحكومات العربية التي تود المحافظة على هويتها الوطنية أن تتعلم درساً مهماً من الاحداث التي عصفت بها، فتعلم اطفالها في المدارس احترام الآخر بغض النظر عن أفكاره أو عرقه. وتُعلّم المراهقين أن هوية الآخر الدينية لا تعني بالضرورة انه خصم. وتُعلّم موظفيها ان المراكز

الإدارية في الدولة توزع على أساس الهوية الوطنية وليس على أساس الهوية الخاصة، ان كانت دينية، او عرقية، او سياسية. وعليها أن تدرك أن التنوع في النسيج الوطني مهم جداً، وبدونه تتحول الدولة الى مجرد عصابة عرقية او دينية غايتها ان تُرهب الآخرين. وعليها أن تفهم أيضاً بأن الطائفية والمذهبية أمران مُقيتان، وأنّ مجاهلها لخصوصيات الأقليات يعني تقوية الروح الإقصائية، العدائية، وهدم للهوية الوطنية. والأهم من كل ذلك عليها أن تُعلن في دساتيرها انها دول علمانية كما اعلن الغرب من قبلها ليؤكد على المفهوم الجمعي للهوية الوطنية.

* الهوية الدينية وصراع الأديان

لا أحد يستطيع ان يحصي عدد الديانات في العالم، ولا تنوعها، ولا عدد الكتب التي تنشر ثقافتها، وفلسفتها الخاصة للحياة والخلود.

كل ديانة لها نمطها الخاص من العبادة، ومع انها تشارك جميعها في عبادة الله، لكن الله ليس نفسه في كل العبادات، كما ان تشارك الأشخاص في ذات الاسم لا يعني انهم واحد.

هناك ديانات تعبد الها في السماء بغض النظر عن ذات هذا الإله، أو عن كونه ذاتا عاقلاً، أو قوة غير عاقلة. وهناك ديانات تعبد الها على الأرض، قد يكون نباتاً او جماداً أو إنساناً، أو حيواناً، أو شيئاً. وهناك ديانات تعبد أرواحاً لكائنات أرضية قد ماتت، او تعبد أرواحاً سماوية.

ومع ان معظم دول العالم قد سنت قوانين، وشرعت أنظمة تكفل الحقوق الدينية لمواطنيها، وتمنع الصراع الديني فيما بينهم لكنها لم تنجح، ويعود السبب في ذلك الى قناعة كل ديانة بمصادقية رسالتها، وضرورة امتداد هذه الرسالة لتكون رسالة كل البشر. لذلك وقعت باسم الدين المئات من الحروب في العالم وما تزال،

وباسم الدين طحن البشر بعضهم البعض الآخر، وداسوا إنسانية الانسان، وأذلّوه كأحققر الحشرات.

لكل فرد هويته الدينية التي من خلالها يُقيّم نفسه إيجاباً، ويقيّم الآخر سلباً، وبسبب هذا المنظور الديني للآخر سيبقى الصراع قائماً، وإن كان بدرجات تتفاوت ما بين ثقافة الرفض، وثقافة القتل، ولن تُحسم هذه الصراعات إلا بتبني الدول للذساتير العلمانية، التي تكفل حرية العبادة، وتلزم الناس من خلال سلطة القانون وقوته باحترام بعضهم البعض، والتعايش تحت علم واحد، كضرورة للبقاء.



الفصل التاسع

الهوية المسيحية

مقدمة:

عندما خلق الله النبات قال: «لَتُسَبِّحِ الْاَرْضُ عُشْبًا»^١، وعندما خلق الرِّحَافَات قال: «لَتَفْضِي الْمِيَاهُ رَحَافَاتٍ»^٢، وعندما خلق الطيور قال: «لَيَطِيرَ طَيْرٌ قَوْقُ الْاَرْضِ»^٣، وعندما خلق البهائم قال: «لَتُخْرِجِ الْاَرْضُ ذَوَاتِ اَنْفُسٍ حَيَّةٍ كَجَنْسِهَا»^٤، ولكن عندما خلق الإنسان اختلف الأمر كثيراً، إذ قيل: «وَجَبَلَ الرَّبُّ الْاِلَهَ اَدَمَ تَرَابًا مِّنَ الْاَرْضِ وَتَفَخَّ فِي اَنْفِهِ نَسَمَةٌ حَيَاةٍ. فَصَارَ اَدَمُ نَفْسًا حَيَّةً (مَخْلُوقًا حَيًّا)»^٥. وبعد ذلك «عَرَسَ الرَّبُّ الْاِلَهَ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا»^٦، «وَاخَذَ الرَّبُّ الْاِلَهَ اَدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا»^٧، ثم أعطاه وصية ليميزه عن بقية الخليقة، وليكون مسؤولاً أمامه. وأخيرا احضر له معينا نظيره.

وهكذا خلق الله الإنسان بطريقة مختلفة عن بقية الكائنات، إذ جعله يتسم بالسيادة، والفرادة، والكمال الأدبي، وكانت الغاية ان يقيم معه علاقة شخصية مميزة، لذلك قيل عن الإنسان إنه مخلوق على صورة الله وشبهه^٨. وإذا نتبعت قصة الخلق نجد آدم في علاقة فريدة وشركة حميمة مع الله خالقه.

ان آدم هو الشخص الأول والوحيد على الأرض، ونحن لا نستطيع ان نتخيل

١ - تكوين ١: ١١.

٢ - تكوين ١: ٢٠.

٣ - تكوين ١: ٢٠.

٤ - تكوين ١: ٢٤.

٥ - تكوين ٢: ٧.

٦ - تكوين ٢: ٨.

٧ - تكوين ٢: ١٥.

٨ - تكوين ١: ٢٧.

كيف يمكن لإنسان ان يعيش وحيداً في الأرض. إنه لم يعرف شخصاً آخر غير نفسه، ولم يعرف اباً، وبالتالي لم يختبر مشاعر الابن. لم يكن له طفوله، ولم يكن له أصدقاء، وكان عليه ان يتعلم كيف يكون انساناً وحده. ويبدو ان الله لم يتركه طويلاً لوحده قبل ان يمنحه رفيقاً مثالياً وشريكاً مناسباً لحياته، فمنحه حواء.

ولو حاولنا ان نفتش عن سبب خلق الله لآدم لما وجدنا إلا سبباً واحداً، هو المحبة، فالله محبة وكل اعماله نابعة من طبيعته المُحبة.

والآن إن اردنا ان نمنح آدم هويّة، بطاقة شخصية، تحمل اسمه، وتاريخ ميلاده، وجنسيته وأيّة أمور أُخرى تُميّزه عن غيره من صفات طبيعية، او مكتسبة، خلال المراحل العمرية التي يمر بها، من لحظة الولادة حتى لحظة الوفاة. فماذا نكتب فيها؟ يجيبنا لوقا البشير فيقول: «آدم ابن الله»^١. وهذا يعني ان آدم لم يأخذ هويّته من دولة، لأنه ليس من دولة. ولا من عشيرة، لأنه ليس من عشيرة. بل أخذها من الله. فهو يُعرّف بانتمائه الى الله، وبدون الله لا هويّة له، بل لا وجود له على الاطلاق.

وإذ نتتبع قصة آدم في جنة عدن، نراه يتقابل مع الشيطان، الذي يعرض عليه هويّة جديدة بعيدة عن الله لكي ينهي وجوده، حينما أقنع حواء بأكل ثمار الشجرة التي أمر الله ألا يأكلا منها. لقد صوّر إبليس لآدم وحواء أنّ الأكل من ثمار الشجرة سوف يمنحهما هويّةً جديدة، مستوى أعظم من المتعة وتحقيق الذات، سوف يُصبحان مثل الله. وإذ كسر آدم وحواء وصيّة الله واستمعا لنصيحة الشيطان سقطا، وسقطت هويّتهما المرتبطة بالله.

ومنذ تلك اللحظة الى الآن والانسان الذي هو نسل آدم، يبحث لنفسه عن هويّة في عيون الناس، او في عيون ذاته، ناسياً او متناسياً أن هويته مرتبطة بالله.

لذلك كل هوية يحصل عليها تكون منقوصة، وستبقى كذلك إلى أن يعود إلى الهوية الأصلية التي أخذها من الرب، وأضاعها بعد ذلك في جنة عدن.

* الهوية المسيحية يُشكلها الله:

إن ولادتي في عائلة ما، تنتمي إلى عشيرة ما، تمنحني إسم تلك العائلة، وتلك العشيرة، فأحصل على هوية عشائرية.

وكوني مولوداً في دولة ما، فهذه الدولة تمنحني جنسيّتها، وبالتالي هويّتها الوطنية.

أمّا كوني مولوداً ذكراً أو أنثى، فهذا يمنحني هويّتي الجندريّة، أي الأدوار التي ينبغي أن أقوم بها في المجتمع كذكر أو أنثى حسب الثقافة السائدة.

أمّا كوني مولوداً في عائلة مسيحية فهذا يمنحني هويّتي الدينية المتعارف عليها في البلد الذي أعيش فيه، دون أن يعني ذلك علاقة خاصة مع الله.

ولكن لأصير مؤمناً مسيحياً، يحمل هوية مسيحية تربطه في علاقة مع الله، أحتاج لولادة روحية، ولادة من فوق.

إذا ولادتي في عائلة مسيحية لا تجعل مني شخصاً مسيحياً، وذهابي إلى الكنيسة باستمرار، لا يجعل مني شخصاً مسيحياً، وقراءتي للكتاب المقدس قد تزيد ثقافتني الدينية، لكنّها لا تمنحني الهوية المسيحية. ما يمنحني الهوية المسيحية ويجعلني مسيحياً حقيقياً، هو علاقتي الشخصية بالمسيح المبنية على قبول خلاصه.

إن الله الخالق المحب، لم يترك الإنسان ضائعاً تائهاً سجين أفكاره المشوهة، وسجين عجزه عن المحييء إليه، فاتخذ من قبله المبادرة، وجاء إلى الإنسان ليستردّه، ويقيم معه علاقة ليست كالسابق، لكن أعظم، ولينمحه هوية جديدة مكتوب فيها: القديس فلان.. ابنُ الله.. من أهل بيت الله، ورعية مع القديسين.

لقد شوهتنا الخطيئة وجعلت كلَّ ما حولنا بريّة قاحلة، قَفَرٌ عَظِيمٌ مَخُوفٌ، مَكَانٌ حَيَاتٍ مُخْرِقَةٍ وَعَقَارِبٌ وَعَطَشٌ حَيْثُ لَيْسَ مَاءٌ.

بريّة ملنا فيها كلُّ واحد الى طريقه، ونقرنا فيها لأنفسنا أباراً مشققة لا تضبط ماء. بريّة ليس فيها سلام بل حروبٌ وخصوماتٌ، حسدٌ وبغضٌ. بريّة، ارجلنا فيها سريعة الى سفك الدماء.

ونحن في خوفنا وحيرتنا إذا بصوت من السماء: «أَنَا عَرَفْتُكَ فِي الْبَرِيَّةِ فِي أَرْضِ الْعَطَشِ»^١، فصرخنا: «لَيْتَكَ تَشْقُ السَّمَاوَاتِ وَتَنْزِلُ!»^٢. وإذ جَاءَ مِلْءُ الزَّمَانِ، شَقَّ اللهُ السَّمَاوَاتِ، وَأَرْسَلَ «ابْنَهُ مُؤَلَّدًا مِنْ امْرَأَةٍ... لِنَتَّالِ التَّبَيُّ»^٣.

اجرة الخطية موت، والفاعل مستحق أجرته، ولأننا غير قادرين على دفع الأجرة تقدم الرب يسوع المسيح من خشبة الصليب ليقبض اجرتنا. وعلى الصليب بعد ان قبض الثمن قال: «قد أُكْمِلَ»^٤، وهي كلمة تجارية تعني (خالص الثمن)، أي حسابك مدفوع بالكامل، ليتم المكتوب، «إِنَّ اللَّهَ كَانَ فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحًا الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ، غَيْرَ حَاسِبٍ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ»^٥.

نعم، «ونحنُ بعدُ خطاةٌ ماتَ المسيحُ لأجلنا»^٦، انه لم ينخدع بنا، لم يمت من أجل أشخاص لا يعرفهم، لم يمت من أجل أشخاص طيبين، أو من أجل أشخاص إنجازاتهم عظيمة، بل مات من أجل خطاة مع سابق الإصرار والتّصميم.

١ - هوشع ١٣: ٥.

٢ - اشعيا ٦٤: ١.

٣ - غلاطية ٤: ٤-٥.

٤ - يوحنا ١٩: ٣٠.

٥ - ٢ كورنثوس ٥: ١٩.

٦ - رومية ٨: ٨.

وإذ نقبل موت المسيح نيابة عنا ننال به الغفران والحياة الأبدية، وتسجل اسمائنا في سفر الحمل، أبجد الأسفار، وبالتالي تُحسب أعمال الحمل اعمالنا. ونتمتع بولادة روحية تمنحنا القدرة على الانسجام مع عالم جديد، هو عالم الله الذي يسيطر عليه البر والتعفف والقداسة وكل ما هو صالح.

ولأننا مولودين من فوق نستطيع ان نقول: « فَإِنَّ سِيرَتَنَا نَحْنُ هِيَ فِي السَّمَاوَاتِ، الَّتِي مِنْهَا أَيْضًا نَنْتَظِرُ مُخْلَصًا هُوَ الرَّبُّ يَسُوعُ الْمَسِيحُ »^١.

وهكذا يصير لنا هوية تنتمي لوطن سماوي ولعائلة الهية، إنها هوية رائعة شكلها الله بناء على نعمته.

* أهمية الهوية المسيحية:

(١) يتوقف عليها مصير الإنسان الأبدى، «وَهَذِهِ هِيَ الشَّهَادَةُ: أَنَّ اللَّهَ أَعْطَانَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً، وَهَذِهِ الْحَيَاةُ هِيَ فِي ابْنِهِ. مَنْ لَهُ الْابْنُ فَلَهُ الْحَيَاةُ، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ ابْنُ اللَّهِ فَلَيْسَتْ لَهُ الْحَيَاةُ.»^٢.

(٢) تعني وجود حد فاصل بين حياة الإنسان القديمة والحياة الجديدة. «إِذَا إِنَّ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ: الْأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ، هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا»^٣.

إن هويتي المسيحية تنقسم تاريخي الى قسمين، ماضٍ عتيق مُدان، وقد انتهى، وانتهت هويته القديمة في آدم. وحاضر جديد، يتجدد حسب صور خالقه، مع هويته الجديدة، قد ابتدأ.

١ - (فيلبي ٣: ٢٠). وجاءت في الترجمة التفسيرية « أما نحن، فإن وطننا في السماوات التي منها ننتظر

عودة مخلصنا الرب يسوع المسيح»

٢ - ١ يوحنا ٥: ١١-١٢.

٣ - ٢ كورنثوس ٥: ١٧.

٣) تُعطي لكل من يحصل عليها نفس الامتيازات، «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع. لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح. ليس يهودي ولا يوناني. ليس عبداً ولا حرّاً. ليس ذكرّاً وأنثى، لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع»^١

٥) تُعدل هوياتنا المشوهة، وهذا يعني انه مهما كانت خلفيتنا الاجتماعية، أو الظروف القاسية التي نشأنا فيها، أو مقدار التشويه الذي لحق بنا، فإن الله سيرمم كل شيء في شخصياتنا.

٦) تجعل حاملها غريباً في العالم، «ليسوا من العالم كما أنا لست من العالم»^٢. وهذا يعني ان حامل الهوية المسيحية هو جسم غريب في العالم يتعرض يومياً للفظ والمقاومة.

٧) تطالبه بسلوك مختلف، «فأطلب إليكم، أنا الأسير في الرب: أن تسلكوا كما يحق للدعوة التي دُعيتُم بها»^٣. إن دعوة المؤمنين المسيحيين هي للحياة المثمرة، هي أن يعيشوا حياة مقدّسة، حياة نقيّة في الارتفاع، بكل تواضع ووداعة. وأن لا يجاروا اهل هذا العالم في سلوكهم، لأنهم مظلّموا الفكر، وبعيدون عن الحياة في الله، وجاهلون. إن المؤمنين أولاد نور، ومطلوب منهم أن يسلكوا كأولاد نور.

٨) إنّ قيمة من يحمل هذه الهوية ليست بسبب إنجازاته، أو تحصيله التعليمي، أو شكله، أو مركزه الاجتماعي، أو ماركة ثيابه، أو موديل هاتفه المحمول، حيث ان هذه الأمور تجعل الكثيرين يشعرون بالتهميش والإقصاء، لكنها بسبب القيمة التي أعطاها يسوع لحياته عندما دفع دمّه ثمناً لها، فقيّمته من قيمة دمه، وليس هذا

١ - غلاطية ٣: ٢٧-٢٨.

٢ - يوحنا ١٧: ١٦.

٣ - افسس ٤: ١

فقط، بل إن وجود المسيح في حياته يُعظّم هذه القيمة، فالهوية المسيحية المُستمدّة من علاقة المؤمن بالمسيح تبقى أهمّ وأثبت من الهوية المُستمدّة من الإنجازات.

٩) تجعل من يحملها سماوي الجنسية، وسفيراً عن المسيح. إن المؤمن في المسيح جنسيته سماوية، «فَإِنَّ سِيرَتَنَا نَحْنُ هِيَ فِي السَّمَاوَاتِ»^١، سيرتنا أي وطننا، فإن كان الناس يبدلون الغالي والثمين طلباً لوطنٍ ارضي، يقضون فيه بضع سنوات قبل ان يموتوا، ويرحلوا، فإن المؤمن له وطنٌ سماوي محدود لأبدية لا تنتهي، ليس فيه وجع ولا بكاء ولا دموع ولا موت، بل هو بَرٌّ وسلام وفرح لا ينطق به ومجيد. ولأن المؤمن جنسيته سماوية، فهو سفير السماء على الأرض. «إِذَا نَسَعَى كُسْفَرَاءَ عَنِ الْمَسِيحِ، كَأَنَّ اللَّهَ يَعِظُ بِنَا»، فأبني امتياز هذا ان نمثل السماء على الأرض، لدرجة ان كل من يقبلنا يقبل المسيح^٢.



١ - فيلبي ٣: ٢٠.

٢ - « مَنْ يَقْبَلُكُمْ يَقْبَلُنِي وَمَنْ يَقْبَلُنِي يَقْبَلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي » (متى ١٠: ٤٠).

الفصل العاشر

امتيازات الهوية المسيحية

(١) تجعل حاملها يعيش كإنسان حرّ، لا سلطان للخطية على حياته. وهذا لا يعني انه لن يخطئ بعد الآن، لكن يعني انه منذ الآن يسود على الخطية التي كانت تسود عليه سابقاً، «فَإِنَّ الْخَطِيئَةَ لَنْ تَسُودَكُمْ لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ تَحْتَ التَّائُمُسِ بَلْ تَحْتَ النِّعْمَةِ» رومية ٦: ١٤. وإنه إن هُزم منها في جولة، سيغلبها في جولات.

(٢) تجعل حاملها يرى الآخرين بمنظور مختلف، هو منظور المحبة، ليصنع فرقاً في حياتهم. من الآن فصاعداً لن يُصنفهم بحسب المعايير البشرية، فقراء أو أغنياء، حُكماء أو جُهلاء، مُتعلِّمون أو أمّيون، أعداء أو أصدقاء. بل سينظر اليهم باعتبارهم خليقة الله، وقد سقطوا تحت حمل الخطية، ويحتاجون المساعدة ليتقابلوا مع الله، وينالوا الغفران، ويصيروا خليقة جديدة في المسيح، كما صار هو.

ان المحبة الموجودة في قلبه تجاه الآخرين، ليست محبته الشخصية المرتبطة بمزاجه أو امكانياته، بل هي محبة المسيح التي انسكبت في قلبه بالروح القدس، لذلك هي محبة تعمل باقتدار على تغيير كل القناعات السلبية التي تدعوا لاحتقار الاخر ومعاداته. فالان في المسيح يسوع، كل شيء قد تغير.

قال الرب يسوع كلاماً كثيراً في كيفية تعاملنا مع الآخرين واليك بعضه:

«لَكَيْتِ أَقُولَ لَكُمْ أَيُّهَا السَّامِعُونَ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ بَارِكُوا لِأَعْيُنِكُمْ وَصَلُّوا لِأَجْلِ الَّذِينَ يُسَيِّئُونَ إِلَيْكُمْ. مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ فَاعْرِضْ لَهُ الْآخَرَ أَيْضاً وَمَنْ أَخَذَ رِدَاءَكَ فَلَا تَمْنَعُهُ ثَوْبَكَ أَيْضاً. وَكُلُّ مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ وَمَنْ أَخَذَ الَّذِي لَكَ فَلَا تُطَالِنَهُ. وَكَمَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمْ اقْعَلُوا أَنْتُمْ أَيْضاً بِهِمْ هَكَذَا. وَإِنْ أَحْبَبْتُمْ الَّذِينَ يُحِبُّونَكُمْ فَأَيُّ فَضْلٍ لَكُمْ؟ فَإِنَّ الْخُطَاةَ أَيْضاً يُحِبُّونَ الَّذِينَ

يُحِبُّوهُمْ. وَإِذَا أَحْسَنْتُمْ إِلَى الَّذِينَ يُحْسِنُونَ إِلَيْكُمْ فَأَيُّ فَضْلٍ لَكُمْ؟ فَإِنَّ الْخُطَاةَ أَيْضاً يَفْعَلُونَ هَكَذَا. وَإِنْ أَقْرَضْتُمُ الَّذِينَ تَرْجُونَ أَنْ تَسْتَرِدُّوا مِنْهُمْ فَأَيُّ فَضْلٍ لَكُمْ؟ فَإِنَّ الْخُطَاةَ أَيْضاً يَقْرِضُونَ الْخُطَاةَ لِكَيْ يَسْتَرِدُّوا مِنْهُمْ الْمِثْلَ. بَلْ أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ وَأَحْسِنُوا وَأَقْرِضُوا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجُونَ شَيْئاً فَيَكُونَ أَجْرُكُمْ عَظِيماً وَتَكُونُوا بَنِي الْعَلِيِّ فَإِنَّهُ مُنْعِمٌ عَلَى غَيْرِ الشَّاكِرِينَ وَالْأَشْرَارِ. فَكُونُوا رُحَمَاءَ كَمَا أَنَّ آبَاءَكُمْ أَيْضاً رَحِيمٌ. وَلَا تَدِينُوا فَلَا تُدَانُوا. لَا تَقْضُوا عَلَى أَحَدٍ فَلَا يَقْضَى عَلَيْكُمْ. إِغْفِرُوا يُغْفَرَ لَكُمْ. أَعْطُوا تُعْطُوا كَيْلًا جَيِّدًا مُلْبَدًا مَهْزُوزًا فَإِذَا يُعْطُونَ فِي أَحْضَانِكُمْ. لِأَنَّهُ بِنَفْسِ الْكَيْلِ الَّذِي بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ»^١.

إن الهوية في المسيح تقود الفرد ليصنع فرقاً إيجابياً حيث يكون.

٣) تجعل حاملها متميزاً في عمله، متجاوزاً كل التوقعات، وهذا التميز في الأداء يحتاج لشخص يُدرك أنه مُتميّز، والتميز لا يعني أن تكون أعماله خالية من الأخطاء، بل أن يعمل تلك الأعمال من كلّ القلب بإخلاص لتمجيد الله «وَكُلُّ مَا فَعَلْتُمْ فَاعْمَلُوا مِنَ الْقَلْبِ، كَمَا لِلرَّبِّ لَيْسَ لِلنَّاسِ»^٢.



١ - لوقا ٦: ٢٧ - ٣٨.

٢ - كولوسي ٣: ٢٣.

الفصل الحادي عشر

الهوية المسيحية والذات

* مقدمة

إننا نعيش في مجتمع برفقة أناس آخرين، وبسبب طبيعة العلاقة بين الناس، فإن الناس لديهم تصوّراتٍ مختلفة عن بعضهم البعض، وهذه التصرّوات تشكل هويّة الفرد في عيونهم، كما أنها تشكل هويّتهم في عينيه. وفي أغلب الأحيان تكون هذه الهوية مُثَبِّتة وغير صحيحة، وهي تعتمد إما على إنجازات الفرد في مجتمعه، أو على أهمية وظيفته، أو بناءً على ممتلكاته، وأحياناً حسب نوع هاتفه المحمول، أو ماركة ملابسه، لذلك فإنّ تقدير الذات والاهتمام بها يحظى بالمكانة الأولى بين الناس الخطأ. وهذا ما نلاحظه مثلاً في العبارات الشائعة والمتداولة بين الناس، فعندما يودّع أحدهم صديقاً يقول له، (اهتم بنفسك)، أو (انتبه لنفسك)، أو (احرص ان تكون سعيداً). وكلها عبارات تتمحور حول الذات، إذ الكل يريد ان يعيش لذاته، وان يموت لذاته.

هذه الذات يراها الخاطيء تتحقق وتكتمل في أمورٍ كثيرة، منها نجاحه ونجاح أفراد أسرته، أو اهتمام الآخرين به، أو المديح الذي يتلقاه من هم حوله. وعادة ما يربطها بإنجازاته، فإن حصل على علامة مرتفعة في الامتحان يكون لديه شعورٌ بتقدير الذات مختلفٌ عن شعوره لو كانت علامته متدنية، وان كانت ممتلكاته كبيرة، والأدوات التي يستعملها حديثة، وثيابه من أفضل الماركات، يزداد الشعور لديه بأن رصيده في بنك الذات قد ازداد، فيمتلئ قلبه بالرضا.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه، ماذا يحدث لهويّة الإنسان عندما يخرج على المعاش (يتقاعد)؟ من هو الإنسان إذا سقط هاتفه من يده وانكسر؟ أو إذا خلّع ملابسه الثمينة ودخل ليستحم؟

لا أحد يستطيع أن يمنع الناس من التفكير وإطلاق الأحكام، ولكن يستطيع الفرد أن يرفض الصور المشوهة التي يرسمها الآخرون لحياته. نعم إن رأي الآخرين مهم، لكنه غير جدير بالاهتمام إن كان سيؤدّر حياة الفرد أو يفقده قيمته.

وإذ نتحدث عن تقدير الذات نجد البعض يتطرف في تقديرها سلباً أو إيجاباً بسبب الفشل أو النجاح في الأمور الحياتية:

فمن الناحية السلبية البعض من الفاشلين يُعبّرون عن تقديرهم المتدني لذواتهم بعبارات مثل، مكاني ليس هنا، لا أصلح لشيء، اشعر بالعجز، انا غير قادر على إتمام هذا الامر. انهم اشخاص يشعرون بالقلق، والحساسية الزائدة، لأنهم يظنون في كل موقف، ان الآخرين سوف يستهزئون بهم، كما حدث مع الجواسيس الذين ارسلهم موسى ليتجسسوا الأرض، وإذ عادوا قالوا لموسى وكل الجماعة: «قَدْ رَأَيْنَا هُنَاكَ الْجَبَابِرَةَ ... فَكُنَّا فِي أَعْيُنِنَا كَالْجَرَادِ وَهَكَذَا كُنَّا فِي أَعْيُنِهِمْ»^١. إنها نظرة دونية للنفس، جراد، وما قيمة الجراد، ولكن الأسوأ من ذلك أن يتوهم الإنسان أن الناس كلهم جبابرة مقارنة به، وانه في عيونهم أيضا مجرد جراد. شخصٌ مثل هذا لسان حاله دائما، أنا لا أعرف، أنا لا أستطيع، أنا فاشل.

أما من الناحية الإيجابية فالبعض من الناجحين يعبرون عن تقديرهم لأنفسهم بطريقة مُضخّمة تتميز بالغرور، والتعالي، والتعطش المستمر للمديح من الآخرين، والشعور بأنهم أصبحوا ناضجين يعرفون كل شيء. انها صورة جميلة جداً ولكن بخلاف الواقع، صورة تملأ صاحبها بالكبرياء، لدرجة قد يظن معها انه لا يحتاج لنعمة الله وخلاصه في المسيح يسوع. فعندما تقول لواحد من هؤلاء: (انت خاطئ يحتاج للمسيح). تصيبه بالدهشة والاستغراب، لأن هذه الكلمة تتنافى والهوية التي كونها لنفسه، انه بار فما حاجته للمسيح!

قال الحكيم سليمان لأمثال هؤلاء: «لَا تَكُنْ حَكِيمًا فِي عَيْنَيْ تَفْسِكَ»^١.

قد تقول في قرارة نفسك انا عظيم، أنا غني، انا متميز في عملي، ولكن سؤالي لك: ماذا لو فقدت غناك، ماذا لو تركت وظيفتك، من أنت؟
بالحصوله كل الذين هم خارج دائرة الايمان يتميزون بالدوران حول ذواتهم،
فماذا عن الذات عند المؤمن؟

أولاً- الذات عند المؤمن جزء من الانسان العتيق^٢ التي ينبغي زوالها.

تُعتبر الذات في المفهوم المسيحي واحدة من اهم ميزات الانسان العتيق، فالمؤمن الذي خلع العتيق، خلع معه الذات، ورمها في سلة النسيان. والكتاب المقدس لا يعلمنا أبداً ان نُهتَم بذواتنا، أو أن نكون مبالغين في تقدير ذواتنا، أو مقصرين بتقدير ذواتنا، أو متوازنين في تقدير ذواتنا، بل يعلمنا ان تُميت الذات «فَأَحْيَا لَا أَنَا بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِي»^٣. وقد اكد الرب هذه الحقيقة عندما قال للمؤمنين، «ان أراد احد ان يأتي ورائي فلينكر نفسه (ليتبرأ من ذاته) ويحمل صليبه ويتبعني»^٤، وأيضاً «من طلب ان يُخلَّص نفسه يُهلكها ومن اهلكها يحييها»^٥. وقد قيل عن الرب يسوع المسيح «مَاتَ لِأَجْلِ الْجَمِيعِ كَيْ يَعْيشَ الْأَحْيَاءُ فِيمَا بَعْدُ لَا لِأَنْفُسِهِمْ، بَلْ لِلَّذِي مَاتَ لِأَجْلِهِمْ وَقَامَ»^٦. إذا نعيش ليس لذواتنا بل للمسيح.

١ - أمثال ٣: ٧.

٢ - الإيمان بالرب يسوع المسيح يشطر حياة الانسان الى قسمين، الأول قبل الايمان ويدعى الانسان العتيق، وهو الانسان بكل تاريخه مع الخطية التي هزمته. الثاني بعد الايمان ويدعى الانسان الجديد، وهو الانسان بكل حاضره ومستقبله مع المسيح حيث يسود على الخطية.

٣ - غلاطية ٢: ٢٠.

٤ - متى ١٦: ٢٤.

٥ - لوقا ١٧: ٣٣.

٦ - ٢ كورنثوس ٥: ١٥.

بالمحصلة ليست الحياة المسيحية تحسينا وتحميلاً للذات، لكنها موتٌ للذات، «إِنْ كُنَّا قَدْ مُنِّتْنَا مَعَهُ فَسَنَحْيَا أَيْضاً مَعَهُ»^١.

ثانياً- الذات عند المؤمن تتنافى مع مفهوم المحبة

لأن المحبة عطاء وتضحية، بينما الذات أنانية. إن ناموس التضحية هو الأعظم بين النواميس، ان كان في السماء او على الأرض، لأنه ناموس الله العظيم، المكتوب في كل جزء من أجزاء الخليقة.

إن حبة الحنطة يجب ان تقع في الأرض وتموت، او ستبقى وحدها. لكنها ان ماتت، فإنها تعيش، وتكاثر، وتواصل نموها.

الأناني محصور بأنانيته، إنه كالنهر الذي يتوقف عن الجريان محتفظاً بمياهه، فيتحول الى مستنقع مياهه آسنه، لكنه إذا جرى يمضي الى نهايته، وفي طريقه يجعل كل شيء نضراً.

ان ناموس التضحية هو ناموس الله الذي أعطى ذاته في يسوع المسيح «لَأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الْآبَدِيَّةُ»^٢.

ان ناموس التضحية هو ناموس المؤمن، الذي يمشي في خطى سيده فيقول: «وَأَمَّا أَنَا فَبِكُلِّ سُورٍ أَنْفَقُ وَأَتَفَقُّ لِأَجْلِ أَنْتَفِسِكُمْ»^٣. والكتاب المقدس يحث المؤمنين، للعمل بمقتضى هذا الناموس قائلاً: «وَأَسْلُكُوا فِي الْمَحَبَّةِ كَمَا أَحَبَّنَا الْمَسِيحُ أَيْضاً وَأَسْلَمَ تَفْسَهُ لِأَجْلِنَا، قَرْبَاناً وَذَبِيحَةً لِلَّهِ رَائِحَةً طَيِّبَةً»^٤.

١ - ٢ تيموثاوس ٢: ١١.

٢ - يوحنا ٣: ١٦.

٣ - ٢ كورنثوس ١٢: ١٥.

٤ - افسس ٥: ٢.

ثالثاً- الذات عند المؤمن تنفخ وتقود للسقوط

لأنها تجعله يظن نفسه أنه شيء وهو بخلاف ذلك. فأي نجاح في الخدمة ينسبه لمهاراته في الوعظ، أو حكمته في القيادة، أو جرأته في التبشير، بينما الحقيقة ان كل ما عنده من مواهب اعانته في اية خدمة ناجحة، مصدرها الرب. ولما كان الأمر هكذا فلماذا يستكبر، أو ينتفخ، طالما كل قدراته ومواهبه لا تنبع من براعته. قال الرسول بولس مؤكدا هذه الحقيقة، «لأنه مَنْ يُمَيِّزُكَ؟ (أي من جعلك متميزاً عن غيرك) وَأَيُّ شَيْءٍ لَكَ لَمْ تَأْخُذْهُ؟ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَخَذْتَ فَلِمَاذَا تَفْتَحِرُ كَأَنَّكَ لَمْ تَأْخُذْ؟»^١.

بتعبير أبسط تَمَيِّزنا عن غيرنا مرتبط بعطايا الله لنا، فلماذا الافتخار طالما انه لا ينبع من براعتنا.

ان الثقة بالنفس تجعلنا نتكل على قوتنا الذاتية، وعلى برنا الذاتي، وعلى قدراتنا الذاتية لفعل الصلاح. بينما الحقيقة هي خلاف ذلك، إذ ينبغي ان نطرح عنا كل ثقة بالذات، وندرك يقيناً، اننا لا شيء ابداً من دون عمل الله المبارك فينا، ومن خلالنا. قال الحكيم، «قَبْلَ الْكَسْرِ الْكِبْرِيَاءُ وَقَبْلَ السُّقُوطِ تَسَامُحُ الرُّوحِ»^٢.

لا تراهن على الانسان القديم لأنه سيخذلك في كل مرة. ولا تظن أن الصقر الذي دريته، وداعبته قد اصبح حمامة، لأنه في لحظة لا تظن، سيغرز مخالبه في لحمك. وتذكر ان ذئبك الصغير قد يملك كل آداب الحمل، لكنه في ساعة شريرة، سيقضي على جميع حملاتك، وربما ينقض عليك أيضاً، ومزقك إرباً إرباً.

إن الذات ميوّس منها الى الابد، ولا تستطيع ان ترضي الله، من اجل هذا ينبغي انزالها كلياً عن عرش القلب، ونبذها، وصلبها مع المسيح.

١ - ١ كورنثوس ٤: ٧-٨.

٢ - امثال ١٦: ١٨.

* ماذا يعني موت الذات عند المؤمن ؟

إن القاعدة العامة تقول: (بالولادة الجديدة، تم الحكم على الانسان العتيق بالموت، وصار الشعار المحبوب، «فَأَحْيَا لَأَنَا بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ»^١). أما الشذوذ عن القاعدة فيعني، ان الانسان العتيق الذي مات قد عادت له الحياة، وان عادت الحياة للعتيق، مات الجديد، وصار الشعار المكروه، (فَأَحْيَا لَأَنَا لا الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ).

إن موت الذات يؤكد أن كل انتصاراتنا ليست من ذاتنا بل من نعمة الله التي تفاضلت فينا، كما قال مقدم شيعة الناصريين، «وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أَنَا مَا أَنَا»^٢

ان موت الذات يؤكد اننا بدون المسيح لاشي وبالمسيح كل شيء، وان قيمة هُويتنا، ليس مما نعمله بجهودنا الذاتية، ولكن بالدم المسفوك على الصليب، الذي قِيمنا، بما يجعلنا في عيني الله، أغلى ما في الوجود.

أما النجاح الذي يُحقِّقه الإنسان المؤمن فيُضيفي جمالاً على حياته، لكنّه لا يُضيف إليه أيّ قيمة. كما أنّ الصندوق الذي نضع فيه عقدًا ثمينًا من الذهب، يُضيفي جمالاً على العقد، لكنه لا يضيف إليه أيّ قيمة.

إن كان المسيح يحيا فيّ والذات ميتة، فأنا أعرف الأشياء التي أحبّها، وأعرف ما يُزعجني، أعرف إمكاناتي، أعرف حاجتي للآخرين وتشجيعهم، وأعرف المسؤولية المُلقاة عليّ، لأشجّع الآخرين وأدعمهم.

إن إدراكي هُويتي في المسيح لا يعني الغرور والغطرسة والتعالي على الناس، بل يعني أنّي أعرف أنه لولا نعمة الله لكنّنا مُستعبداً للخطيئة.

١ - غلاطية ٢: ٢٠

٢ - ١ كورنثوس ١٥: ١٠.

أن أعرف هويتي بالمسيح تعني، أنني أعرف كيف أحب الآخرين، وتعني أن علاقتي مع الآخرين أساسها القاعدة الذهبية التي وضعها الرب يسوع المسيح عندما قال: «فَكُلُّ مَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمْ افْعَلُوا هَكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا بِهِمْ»^١.



الفصل الثاني عشر

علاقة الهوية المسيحية بالهوية الوطنية

* تأثير الهوية المسيحية على الهوية الفردية والاجتماعية ؟

إن المؤمن المسيحي هو سفير السماء على الأرض، وهو يدرك ان سفارته ليست في وطنه، بل في بلاد غريبة لا يوجد فيها دليل لحياته سوى كلمة الله. ومن خلال هذا الدليل يضع في سفارته اجمل الصور عن بلاده السماوية. ويكون هذا بشكل عملي من خلال تسخير كل امكاناته لا سيما الأخلاقية منها لمصلحة المجتمع الذي يعيش فيه، ولسان حاله: من لا يحترم الإنسان المخلوق، لا يحترم الخالق. ومن لا يحب الإنسان الذي يراه كيف يمكن له ان يحب الله الذي لا يراه.

إن المؤمن المسيحي هويته في المسيح لها المقام الأول، وهو يستخدم كل مقوماتها كي يؤثر ايجاباً في كل الافراد الذين يحيطون به، لتتغير هويتهم الفردية للأفضل «وَلَيْسَ أَحَدٌ يُوقَدُ سِرَاجًا وَيُعْطِيهِ إِنَاءً أَوْ يَضْعُهُ تَحْتَ سَرِيرٍ بَلْ يَضْعُهُ عَلَى مَنَارَةٍ لِيَنْظُرَ الدَّاخِلُونَ النُّورَ»^١. وكذلك إذ تتغير الهوية الفردية للأفضل، تتغير تلقائياً الهوية الاجتماعية للأفضل.

* تأثير الهوية المسيحية على الهوية الوطنية

تقول كلمة الرب: «لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلَاطِينِ الْفَائِئَةِ (السلطات الحاكمة) لِأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلَّا مِنَ اللَّهِ وَالسَّلَاطِينُ الْكَائِنَةُ (السلطات القائمة) هِيَ مُرْتَبَةٌ مِنَ اللَّهِ حَتَّى إِنْ مَنْ يُقَاوِمُ السُّلْطَانَ يُقَاوِمُ تَرْتِيبَ اللَّهِ وَالْمُقَاوِمُونَ سَيَأْخُذُونَ لِأَنْفُسِهِمْ دَيْنُونَةً. فَإِنَّ الْحُكَّامَ لَيْسُوا خَوْفًا لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَلْ لِلشَّرِّيرَةِ (الحكام لا يخافهم

من يفعل الصلاح بل من يفعل الشر). أَفَتُرِيدُ أَنْ لَا تَخَافَ السُّلْطَانَ؟ افْعَلِ الصَّالِحَ فَيَكُونَ لَكَ مَدْحٌ مِنْهُ»^١.

كانت كنيسة روما تضم في صفوفها البعض من المسيحيين ذوي الأصول اليهودية المتأثرين بناموس موسى، الذين ظنوا أن الله يتعامل مع الكنيسة كما كان يتعامل مع اليهود كمملكة، أو كشعب واحد.

لكن الحقيقة هي خلاف ذلك، فالكنيسة الآن ليست مملكة وليست أمة، لكنها عبارة عن أفراد قد قرروا أن يعطوا قلوبهم للرب، وهم ينتمون لممالك وقوميات مختلفة، والرب يتعامل معهم على هذا الأساس، أي كأفراد.

هؤلاء المسيحيون من أصل يهودي، والذين لم يفهموا المسيحية بعد على حقيقتها، كان يعسر عليهم بحسب ناموس موسى المسيطر على أذهانهم، والذي هو جزء من تاريخهم، أن يخضعوا للحكام الرومانيين الوثنيين بحسب الوصية «...لا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَجْعَلَ عَلَيْكَ رَجُلًا أَجْنَبِيًّا لَيْسَ هُوَ أَخَاكَ»^٢. فخشوا أن يحسب الله خضوعهم لأولئك الحكام الوثنيين عصياناً له.

لذلك يقول الرسول بولس للكنيسة في روما ومن خلالها لكل الكنائس «لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلَّا مِنَ اللَّهِ»، وهذه جملة مطلقة تشمل جميع الحكام والمتسلطين في كل المجتمعات المنظمة، بغض النظر عن أسمائهم أو ألقابهم أو نوع حكمهم أو وسيلة تسلطهم. مما يعني أن الكنيسة الآن ليست مملكة ثيوقراطية على شاكلة الأمة العبرانية، الكنيسة الآن مجموعة أفراد تنتمي لمجتمعات مختلفة، وعلى كل فرد فيها أن يخضع للسلطين الفائقة لأنها مرتبة من الله، وبناء عليه فالْمُؤْمَن هُوَ:

أولاً، رجل قانون، أي يحترم ويطيع القانون، وهذه الطاعة تتجلى بالمساندة المالية للدولة وذلك من خلال دفع كل الضرائب والرسوم التي تترتب عليه، وهو يعلم

١ - رومية ١٣: ١-٣

٢ - تثنية ١٧: ١٥

تماماً أن هذا الأمر ينبغي أن يفعله لتستمر الدولة قائمة. أما الذين يفكرون بانتهاك القانون فعليهم أن يخافوا العقاب، فإن أرادوا أن يتمتعوا بالحياة الهانئة المطمئنة، الحياة التي لا يدخلها الخوف من الغرامات والعقوبات والمحاكم والسجون، عليهم أن يكونوا مواطنين يراعون القانون.

ثانياً، رجل يحترم نفسه، وهذا الاحترام يتجلى أمام الذين هم في مراكز السلطة، فهو يخضع لأوامرهم ويظهر لهم الاحترام ولا يغیظهم، حتى لو كانوا من جهة أنفسهم غير محترمين. وهو لا يشترك بأي كلام سيء ضدهم، من أصغر موظف في الدولة إلى رأس الدولة.

إن الله الذي نعبد هو إله ترتب، وقد رتب بحكمته الأزلية قيام الحكومات، ونحن نعلم أن وجود الحكومات أفضل بما لا يقاس من عدم وجودها، والناس تتمنى دائماً أن تعيش في مجتمعات تحكمها سلطة. أما المجتمعات الفوضوية فهي المجتمعات التي يهرب منها الناس والتي فيها يكون كل إنسان قانوناً لنفسه وللاخرين. إننا مجتمعات تعيش شريعة الغاب، شريعة القوي الذي يأكل الضعيف دون خوف من رادع أو ضمير.

إن وجود أية حكومة هو أفضل من عدم وجودها، لأن بالحكومة يأتي القانون، وبغيابها يغيب القانون. ولأنه قد يخطر في أذهان المؤمنين هذا السؤال، ما هو موقفنا إذا كانت الحكومات فاسدة وشريرة، ما هو موقفنا إذا طلب القيصر ليس الأمور التي تخصه فقط، لكن أيضاً تلك التي تخص الله. ونحن نعرف أن هذه المشكلة المزعجة قد واجهت فعلاً المسيحيين الأوائل، إذ أن القيصر تعدى الحدود التي رسمها له الله وتجاوز السلطان الممنوح له عندما طلب أن يُلقب برب وأن تقدم له الذبائح والقربان والبخور، ومن لا يفعل ذلك يُحكم عليه بالموت. ماذا يفعل المسيحيون في مثل هذه الحالة؟

الرسول بولس يقول: «إِنَّ مَنْ يُقَاوِمُ السُّلْطَانَ يُقَاوِمُ تَرْتِيبَ اللَّهِ وَالْمَقَامُونَ سَيَأْخُذُونَ لِأَنْفُسِهِمْ دَيْئُونَةً» وهذا يعني أنه مهما كان السلطان شريراً ينبغي أن لا يقاوم، فالمسيحية ليست ديانة ثورات ولا انقلابات، إنها حياة خضوع لكل من هو في منصب، إنها خضوع مطلق للقانون.

فسواء كان القيصر يحكم دكتاتورياً أو ديمقراطياً ينبغي الخضوع له، طالما أنه لم يتعدَّ سلطته المفوضة إليه من قبل الله، وطالما أنه لم يقتحم الحدود التي ليست له، أي التي تخص الله. أما إن فعل وظهر التعارض بين الهويتين الوطنية والدينية، فإنَّ لسان حال المؤمن يكون لسان حال الرسل عندما تمَّ استجوابهم من قِبَل رؤساء اليهود حيث قالوا، «يَنْبَغِي أَنْ يُطَاعَ اللَّهُ أَكْثَرَ مِنَ النَّاسِ»^١. ونحن نعلم ان هذه الطاعة لله قادت الكثيرين على مر الأجيال لساحات الموت والصلب والحرق والإهانة.

نعم هناك أوقات ينبغي أن يطاع فيها الله أكثر من الناس مما يؤدي لجلب غضب الناس، وفي حالات كهذه على المؤمن أن يتلقى غضب الناس (الحكام) دون أن يثور ضدهم أو يشارك بأية محاولة للإطاحة بهم. ولكن هل هذا يعني أن الله يصادق على كل ما يفعله الحكام ولا سيما الأشرار منهم. هل هذا يعني أن الله وراء الفساد والاستبداد والوحشية والظلم، كلا.

أن تكون السلطات مرتبة من الله شيء وأن يوافق الله على كل ما تفعله هذه السلطات شيء آخر. السلطة وكالة، والسلطان وكيل، ولا بد للوكيل أن يدفع حساب وكالته أمام الله.

على كل تستطيع الكنيسة بشكل دائم أن تعارض القيصر في مطالبه غير المشروعة، عندما تتجاوب مع مطالبه المشروعة والقانونية.

ان ايمان المسيحي يفرض عليه ان يعيش حياة متوازنة ضمن هويات متعددة. كما فعل الرب يسوع المسيح الذي عاش حياته ضمن هويات متعددة، فقد كان ابن الله، وابن الإنسان، ومواطنًا يهوديًا يعيش تحت الاحتلال الروماني. في هويته كابن الله أحضر محبة الله إلى الناس مُعلنًا الرجاء للبشرية.

وفي هويته كابن الانسان، كره الخطية، واحب جميع الناس مع ان الجميع قد اخطأوا. والكتاب المقدس يصفه قائلاً: جال يصنع خيرا ويشفي جميع المتسلط عليهم ابليس.

وفي هويته كمواطن يهودي تحت الحكم الروماني كان شعاره «أَعْطُوا إِذَا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ». ونتيجة لذلك لم يصطدم مع الرومان ولم يخرض أحداً على الثورة ضدهم، حتى ان بيلاطس الوالي الروماني الذي حَكَم عليه ظلماً، بالموت صلباً، قدم شهادة في حقه عندما قال: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ دَمِ هَذَا الْبَارِّ»، فوصّفه بالبار.

وهكذا يرسم يسوع معالم وطبيعة العلاقة بين الهوية المسيحية والهوية الوطنية. فمن يحمل الهوية المسيحية هو بطبيعته قابل للتعايش مع الجميع وهكذا ينبغي ان يبقى.

الفصل الثالث عشر

صراع الهُويّات عند العابر

* مقدمة

ان التحول على مستوى الهُويّة الفردية، يجعل العابر الى المسيحية، فاقدا للهُويّة الاجتماعية القديمة، هُويّة (النحن). فكل تلك المعرفة المشتركة مع المجموعة التي كان ينتمي اليها صارت من الماضي العتيق الذي انتهى، والآن ثقافة مختلفة مرتبطة بمفردات الكتاب المقدس، ومصطلحات لغوية مشتركة مع جماعة جديدة، ونظرة جديدة لكل الخليفة، بل وللخالق أيضاً.

ان العابر الى المسيحية يواجه تحديات صعبة، مرتبطة بجملة من الظروف التي تحيط به، منها المجتمع الذي يحيا فيه، ومركزه الاجتماعي، والديانة التي كان ينتمي اليها، ونظام الدولة التي يحيا فيها. وربما الاقصى بين هذه العوامل هو ديانته، حيث ان غالبية الأديان غير متسامحة، وتسمي هذا الأمر ارتدادا يستوجب الموت، أو تدعوه خيانة وطنية عظمية باعتبار ان الدين هو العنصر الأساس في الهُويّة الوطنية.

* العابر والهُويّة الفردية

يُعَدّ التحول الديني من أعمق التحوّلات على صعيد الهُويّة عند الفرد. فعندما يؤمن العابر من خلفيّة دينية أخرى، فإن كل الصفات، والقيم الموروثة لديه، والتي تشكل هُويّته الفردية، تتعرض للتغيير، ليس بشكل آني، بل على مدى سنواتٍ طويلة. وهذا يعني أن معارك طاحنة تدور في داخله، بين قيم عاشها، وقيم جديدة سيعيشها، بين كلمات اعتادها، وكلماتٍ جديدةٍ تُخالف ما اعتاد.

* العابر والهوية الاجتماعية

ان التغيير الذي يحدث في الهوية الفردية للعابر الى المسيحية، سيغير من هويته الاجتماعية تلقائياً. لأن الصفات، والقيم التي صار عليها، تلزمه بشكل تدريجي ان يغير الجماعة التي ينتمي اليها، كون هذه الصفات والقيم، لم تعد تناسبها، أو لم يعد لها مكان، في هذه الجماعة.

ولكن ينبغي أن ندرك إن حياة العابر القديمة، أي هويته الاجتماعية القديمة، والمُجتمع الذي وُلِد وترعرع فيه، والعائلة التي احتضنته بكل ذكرياتها الحلوة والمرّة هي جزء مهم من تاريخه لا يستطيع بسهولة ان يتخلص منه منتقلاً الى حياة جديدة تختلف بكل مفرداتها عن التاريخ الذي يحمله معه أينما حل. لذلك سينشأ صراع في داخل العابر حول سؤال مهم كان يؤرقه قبل ان يتخذ الخطوة بالانتقال الى الهوية المسيحية، هو: ماذا سأفعل بكل علاقاتي وروابطي مع مجتمعي، هل أستطيع ان ادمج هويتي الجديدة مع القديمة، وبالتالي اتعايش بشكل من الاشكال بين ما هو قديم وما هو جديد؟ ويشد هذا الصراع عندما يكون العابر في وضع لا يستطيع من خلاله مغادرة مجتمعه الى مجتمع آخر، أي يكون في وضع هو فيه غير قادر على اعلان ايمانه الجديد.

لمعالجة هذا السؤال سنفترض الأمور التالية:

(١) العابر يعيش في مجتمع متسامح فيه تنوع ديني وعرقي وما شابه.

هذا يعني انه بالإمكان الإبقاء على روابط العائلة والأصدقاء، ودمجها بالعلاقات والروابط الجديدة. فكما يتلاءم الفرد مع كل محيط يعيش فيه هكذا سيتلاءم العابر مع محيطه الجديد. وكمثال على ذلك يعيش الانسان في بيته (مجتمعه القديم) بطريقة مختلفة عن عمله (مجتمعه الجديد)، فالثياب تختلف حسب المكان، والكلام

يختلف، والسلوك يختلف، وكل هذا الاختلاف ليس مبرراً للتخلي عن محيطه العائلي (مجتمعه القديم) في سبيل الاندماج في محيط العمل (مجتمعه الجديد).

لذلك ليس متوقعاً من العابر في مثل هذه الظروف الإيجابية ان يقطع كل علاقة تربطه بعائلته وبأصدقائه، خاصة وان العابر يود وبشكل من الاشكال المحافظة على الكثير من هذه الروابط والذكريات الحميمية. فهو يستطيع أن يُحافظ على علاقته بمجتمعه القديم، وفي الوقت عينه يحافظ على انتمائه إلى مجتمعه الجديد، المُكوّن من مؤمنين في المسيح.

لكن الانتماء الى مجتمعين في آن معاً، يتطلب مهارة خاصة، وحكمة سماوية. فالعابر عليه ان يُظهر محبته لمجتمعه القديم دون ان يفرط بأساسيات مجتمعه الجديد، فهو يُسلّم عليهم، ويعبّر لهم في مواقف متعددة عن محبته لهم، ويمد لهم يد المساعدة في اي امر يستطيع. ولكن عندما تكون الأمور مرتبطة بالمشاركة بمناسبات دينية، فعليه ان يمتنع لأن في هذا ازدراء لإيمانه المسيحي، وللمسيح شخصياً. وكمثال على ذلك، لا يستطيع العابر ان يذهب إلى دار العبادة القديم، وهو يقول في قلبه، اني أصلي للمسيح. أو يصوم صومه القديم معهم، ثم يشاركونهم بالإفطار، ولكن بدوافع (مسيحية). أو يُعيد معهم أعيادهم، ويأكل من ذبائحهم الحيوانية على اعتبار ان الذبيحة التي يؤمن بها هي ذبيحة المسيح، وليس له علاقة بالذبائح الحيوانية التي هي مُشكّلتهم. أو يقول للآخرين كلمات للمعاملة الدينية وهو في قلبه لا يعني بهذه العبارات تماماً ما يفهمه الآخرون.

ان الكتاب المقدس يقدم لنا موعظة حسنة من سلوك الرب يسوع المسيح، ففي حادثتين منفصلتين، نرى الرب كيف تصرف مع الآخرين دون ان يعثرهم، او دون ان يَكُفَّ عن محبته لهم. في الحادثة الاولى قيل له، انه ينبغي عليه ان يدفع الجزية، فماذا فعل، اكد لبطرس انه غير ملزم بدفع الجزية، ولكن «لئلا

تُعْزِرُهُمْ»^١ دفع الجزية. وفي الحادثة الثانية «سَأَلَهُ الْفَرِّسِيُّونَ وَالْكَتَبَةُ: «لِمَاذَا لَا يَسَلُّكَ تَلَامِيذُكَ حَسَبَ تَقْلِيدِ الشُّيُوخِ بَلْ يَأْكُلُونَ خُبْزًا بِأَيْدٍ غَيْرِ مَعْمُولَةٍ؟»^٢ ولأن الأمر لا يتعلق بحق شخصي يمكن التنازل عنه من اجل استمرار الخدمة، بل يتعلق بعقيدة لا يمكن المساومة عليها، لم يقل لتلاميذه اغسلوا اياديكم «لئلاَّ تُعْزِرَهُمْ»، لكنه قال للذين سألوه، ان الطهارة لا تتعلق بالغسل، لأن النجاسة ليست مرتبطة بنظافة الانسان او بما يدخله، لكنها مرتبطة بما يخرج منه «إِنَّ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْإِنْسَانِ ذَلِكَ يُنَجِّسُ الْإِنْسَانَ. لِأَنَّهُ مِنَ الدَّاخِلِ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ تَخْرُجُ الْأَفْكَارُ الشَّرِّيرَةُ: زِنَى فِسْقٌ قَتْلٌ... الخ...»^٣.

وهكذا فعل الرسول بولس فقال: «فَلْيَنِي إِذْ كُنْتُ حُرًّا مِنَ الْجَمِيعِ اسْتَعْبَدْتُ نَفْسِي لِلْجَمِيعِ لِأَرْبَحَ الْأَكْثَرِينَ. فَصِرْتُ لِلْيَهُودِ كَيَهُودِيٍّ لِأَرْبَحَ الْيَهُودَ وَلِلَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ كَأَنِّي تَحْتَ النَّامُوسِ لِأَرْبَحَ الَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ ٢١ وَلِلَّذِينَ بِلَا نَامُوسٍ كَأَنِّي بِلَا نَامُوسٍ - مَعَ أَنِّي لَسْتُ بِلَا نَامُوسٍ لِلَّهِ بَلْ تَحْتَ نَامُوسٍ لِلْمَسِيحِ - لِأَرْبَحَ الَّذِينَ بِلَا نَامُوسٍ»^٤. فكل ما يتعلق بحقوقه الشخصية مستعد ان يتنازل عنه لئلا تعاق البشارة. إنه مستعد ان لا يأكل لحم الخنزير في وسط مجتمع يهودي، وان لا يأكل لحم البقر في وسط مجتمع هندوسي، وان يرتدي الثياب التي يرتديها المجتمع الفلاني. كل هذا مفهوم عند الرسول بولس، اما عندما تتعلق الامور بالعقيدة، فلا مجال للتنازل، لأن هذه ليست حقوقه، بل حقوق الرب، وهو وكيل عليها. لذلك عندما تدمر اليهود واليونانيون من الصليب لم يسايرهم، بل قال: «وَلَكِنَّا نَحْنُ نَكْرِزُ بِالْمَسِيحِ مَصْلُوبًا: لِلْيَهُودِ عَثْرَةٌ وَلِلْيُونَانِيِّينَ جَهَالَةٌ!»^٥.

١ - متى ١٧: ٢٧.

٢ - مرقس ٧: ٥.

٣ - مرقس ٧: ٢٠-٢٢.

٤ - ١ كورنثوس ١٩-٢١.

٥ - ١ كورنثوس ١: ٢٣.

ان التعبير عن المحبة ليس مرتبطاً بالمشاركات الدينية، وكذلك موضوع العشرات ليس مرتبطاً بالمشاركات الدينية. هناك مجالات كثيرة تتنازل فيها عن حقوقنا للتعبير عن المحبة. وهناك مسلكيات كثيرة تُعبّر فيها عن محبتنا للآخر. أما إن اعتبر الآخر، ان عدم مشاركتي له بمناسبة دينية تخصه عثرة له فهذا شأنه، هو أصلاً يعيش العثرة. السؤال المهم في كل سلوكي: ان كنت اشارك الآخر اموره الدينية، كيف اقنعه بهويتي المسيحية التي تختلف عن هويته الدينية؟ بل إن شاركته بأموره الدينية ماذا يتبقى لدي لأقدمه له؟

كخلاصة أقول: يستطيع العابر في مثل هذه الشروط الإيجابية أن يتنقل بين المجتمعين القديم والجديد، مبدلاً أنماط سلوكه وتعاييره بما يُناسب المجتمع الذي يكون فيه بحسب الحكمة المعطاة له من الله.

(٢) العابر يعيش في مجتمع غير متسامح، ولا يوجد فيه أي تنوع ديني أو عرقي أو ما شابه. في مثل هذه المجتمعات تكون الشروط قاسية، والضغط كبيرة لدرجة ان العابر قد لا يحتملها. وفي بعض المجتمعات المهمجة منها، يخشى العابر على نفسه من القتل، حيث لا قوانين تحافظ على سلامته من همجية الرافضين لقناعاته. فماذا يفعل؟

ربما الأنسب له ان يغادر مجتمعه الى مجتمع آخر يجد فيه جماعات مسيحية، تؤمن له الهوية الاجتماعية الجديدة، ليستعيض من خلاها عن عائلته القديمة، لأن هذه الأخيرة رفضته. وأيضاً لتؤمن له بيئة تنسجم مع رؤيته الجديدة، فيها يتلمذ وينمو نمواً مسيحياً.

أمّا إن كان غير قادر على المغادرة، أو لديه دعوة من الله ليبقى حيث هو، فعليه ان يعيش إيمانه المسيحي سراً، وإذ تسنح له الفرصة يكلم من هم حوله.

يقدم لنا الكتاب المقدس ما يساعدنا على فهم هذا الموضوع، حيث ان المسيحيين من خلفية يهودية كانوا يعيشون في مجتمع يهودي، ومع أن المسيحية اعتُبرت في البداية حركة يهودية، ولم تتعرض لاضطهاد شديد، إلا انه بمرور الوقت عندما تعاضم شأنها، تمت مقاومتها بشكل منظم من المجامع اليهودية، ومن المجتمع اليهودي الخاضع بشكل قوي لتعاليم رجال الدين.

فإذا أراد المسيحي من اصل يهودي ان يجمع بين المسيحية واليهودية، أي ان يعيش تارةً يهودياً وتارةً مسيحياً، تارةً يُهوّد المفاهيم المسيحية وتارةً يقبلها كما هي، يُصاب بالفشل والاحباط. لأن الاثنين على طرفي نقيض^١. هذه الثنائية المتعبة للمؤمن المسيحي لم تنتهِ الا عندما هُدم الهيكل، وغادر المسيحيون مجتمعهم اليهودي بشكل كامل.

المقاربة الان في المجتمعات التي لا يوجد فيها تنوع تقول: إن العابر الذي يعتنق المسيحية هو في وضع أشد حساسية، لأن العبارات والمصطلحات اللغوية التي يحملها المسيحي وسحملها العابر، تختلف جذرياً، عن المصطلحات اللغوية التي يحملها أبناء هذا المجتمع، وبالتالي لن يستطيع العابر التواري بين افراد مجتمعه إذ سرعان ما سيُفترض امره.

ناهيك عن رفض المسيحية رفضاً قاطعاً لمبدأ التقية، الذي يفصل ما بين الذي في القلب، والذي على اللسان، والقائل، إن ما في القلب اهم مما على اللسان، فيُبيح الكذب في المواقف الصعبة، أو يقول: الظروف تقتضي ذلك.

ينبغي على العابر في النهاية أن يدرك، أنّ أتباع المسيح، يُنتج تغييراً جذرياً على مستوى هويته الفردية، تغييرٌ يستحق المحافظة عليه، مهما بلغت التضحيات.

١ - «ولا يجعلون خمرًا جديدة (المسيحية) في زقاق عتيقة (اليهودية) لئلا تنشق الزقاق فالخمر تنصب والزقاق تتلف. بل يجعلون خمرًا جديدة في زقاق جديدة فتحفظ جميعاً» متى ٩: ١٧.

إن المسيحية، هي تحدٍ عميق للعابر الذي سيجد نفسه عن قريب، أمام واحدٍ من اصعب الاعلانات الكتابية، حيث قال الرب يسوع: «مَنْ أَحَبَّ أَباً أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوْ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي وَمَنْ لَا يَأْخُذُ صَلَيبَهُ وَيَتَّبِعُنِي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي. مَنْ وَجَدَ حَيَاتَهُ يُضِيعُهَا وَمَنْ أَضَاعَ حَيَاتَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدْهَا»^١، وأيضاً «فَكُلُّ مَنْ يَعْتَرِفُ بِي قُدَّامَ النَّاسِ أَعْتَرَفْتُ أَنَا أَيْضاً بِهِ قُدَّامَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ وَلَكِنْ مَنْ يُنْكِرُنِي قُدَّامَ النَّاسِ أُنْكِرُهُ أَنَا أَيْضاً قُدَّامَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ»^٢.

نعرف ان الامر صعب على العابر القادم من خلفيات لا تحترم حق الانسان في الاختيار، ولكن الحياة الابدية تستحق ان نضحى بالغالي والرخيص لأجلها.

ونعرف ايضاً ان مصيرنا الابدى، ومصيرنا على هذه الارض، ليس بين ايادي الناس، بل هو بين يدي الهٍ قدير محب. ولن تجري الامور بحسب مقاصد الناس، بل بحسب مقاصد الهنا. لذلك لنطرح ثقتنا بالكامل بين يديه ولا نعطي الخوف فرصة لإرباك إيماننا.

تم بنعمة المسيح

١ - متى ١٠: ٣٧-٣٩.

٢ - متى ١٠: ٣٢-٣٣.

كُتِبَ لِلْمُؤَلِّفِ

- ١) عالم يتغير برسالة لا تتغير ج ١، ٢٦٣ صفحة. لاهوت نظامي. صدرَ في دمشق، ٢٠٠٥.
- ٢) هل حقاً يسكن الله في خيمة، ١٦٠ صفحة. دراسة تأملية. صدرَ في القاهرة، ٢٠٠٧.
- ٣) الكنيسة والعبادة، ٢٣٧ صفحة. عقائد. صدرَ في دمشق، ٢٠٠٨.
- ٤) مُخلّص العالم، ٤٤٦ صفحة. دراسة انجيلية، صدرَ في دمشق، ٢٠١٢.
- ٥) الحقيقي والمزيف، ٨٠ صفحة. أقاصيص. صدرَ في دمشق، ٢٠١٣.
- ٦) هل نحتاج الى الله، ١١١ صفحة. دراسة تأملية. صدرَ في دمشق، ٢٠١٥.
- ٧) عالم يتغير برسالة لا تتغير ج ٢، ١٨٥ صفحة. لاهوت نظامي. صدرَ في دمشق، ٢٠١٦.

ليس من السهولة ان تكون هُويّة الانسان صحيحة. لأن العوامل التي تُسهم في صياغتها متنوعة جداً، بعضها وراثي، والآخر مكتسب من بيئة فيها الكثير من المفاهيم الموروثة الخاطئة.

إن هذا الكتاب هو محاولة لإيضاح الطريقة التي تتشكل فيها الهُويّة الفردية، والصراع الذي يدور بينها وبين باقي الهُويات، كالدينية، والوطنية، والجنسية، الخ..

ولأن الهُويّة الدينية ذات شأن كبير سنقرأ ما يقوله الكتاب المقدس عن دور الإيمان المسيحي في صياغة الهُويّة الفردية. وجعلها في تناغم مع كل الهُويات الأخرى لاسيما الوطنية.

ISBN 978-9933-9237-8-5

